الثقافة العربية الراهنة وآفاق تطورها في مواجهة أشكال الغزو الثقافي

الدكتور حسام الخطيب

تمهيد:

بكثير من الجد، بكثير من القلق، بكثير من التهيب، أقدم على معالجة مثل هذا الموضوع الكبير الواسع المتشعب الذي يصعب التقاط مادته الهلامية بملاقط البحث الاحترافية المألوفة.

ولم يكن من الصعوبة عندي أن أقسم البحث إلى عدة أقسام يتألف كل قسم منها مما هو متوافر من الاحصاءات والوقائع والمحاولات التي تحمل الإدانات للعدو الامبريالي الصهيوني - حول أشكال الغزو الثقافي ومداه ومآربه، وحول تدابير الصهيونية في الأرض المحتلة لطمس الثقافة الفلسطينية وسرقة التراث الشعبي والفني الفلسطيني، وإخماد الكلمة المناضلة وخنقها إما بالإبعاد وإما بالسجن وإما بالمصادرة وإما بالتهديد والوعيد.

إن هذه المواد ومثيلاتها متوافرة في المراجع العديدة التي نشرتها منظمة التحرير الفلسطينية، والمؤسسات العربية المختلفة المعنية بالدفاع عن الثقافة العربية، والأفراد الغيورون، وشهود العيان في المنطقة العربية. وإذا أعوز المرء شهادات إضافية أو معلومات موثوقة فله في المنظمات العالمية مثل اليونسكو وجمعيات حقوق الإنسان مظنّة تفي بالغرض وتزيد.

وإذن ليس هذا البحث معنيًّا بالوقائع والمعلومات لذاتها، أو لغرض توثيقها، وإنما هو محاولة لوضع المشكلة الثقافية على الشاشة الفكرية مكشوفة عارية بقدر ما تسمح قوانين الرقابة السينمائية في البلاد العربية وبقدر ما يسمح التحريم (التابو) الاجتماعي، اللهم لا خوفاً من ذلك ولا فرقاً ولا تهيباً، ولكن رغبة في أن يجد الكلام الذي يقال هنا فرصة للتنفس، وتأشيرة دخول (فيزا) إلى العدد الأكبر من أقطار الوطن الحبيب التي يكاد يصبح من الضروري في معظمها أن (تقطع) للكلمة هوية تضمن (شرعية) الحركة الداخلية وجواز سفر يضمن (الأذن) بالتجوال خارج الحدود.

وسنحاول مع القارىء ألا تكون هذه (التقيّة) ذريعة لإخفاء أي من الحقائق والأوضاع التي نظن أن جذور العلة الثقافية تضرب فيها أو تمسها أو تمت إليها بصلة كبيرة أو صغيرة. فأنا أحس القارىء ببعض التواء في العبارة هنا وهناك فليعرف - وما نحسبه إلا قد اعتاد على ذلك - أن الوعورة الناجمة عن التوقّل[1] في نتوء بارز أو ارتفاع حاد استدعت الحذر والالتفاف بدلاً من استعمال كلاليب متسلقي جبال الألب التي لا تجدي فتيلاً إزاء صلابة الصخور الجاثمة على الربوع غير الثابتة.

الثقافة العربية الراهنة وأشكال المعاناة

الثقافة العربية اليوم محاصرة، ما في ذلك شك. والأخطار التي تتعرض لها متنوعة ومتعددة الأشكال والوسائل. ويخطىء من يظن أن المسألة تتعلق فقط بما يسمى (التطبيع الثقافي) بين النظام المصري والعدو الصهيوني.

إن مشكلة الثقافة العربية موجودة قبل التطبيع، ووجود هذه المشكلة هو الذي زاد من خطر التطبيع، الثقافي بل جعل التطبيع - ولو في مقاييسه الراهنة المحدودة - ممكناً[2] ولهذه المشكلة الثقافية - التي يجمع كل من بحث في الثقافة على جدية خطورتها - وجهان:

وجه طبيعي تاريخي، ناجم عن طبيعة مرحلة التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي تخوضه الأمة العربية بأقطارها الاثنين والعشرين حتى الآن.

وجه مصطنع قصدي، ناجم عن وجود مؤامرة استعمارية صهيونية هادفة أي تمزيق الثقافة العربية وإحلال ثقافات إقليمية محلها تجد مثلها الأعلى ولونها الخاص في منابع الثقافة الغربية.

وهذان الوجهان للمشكلة ليسا منفصلين، ويصعب البحث

---

(١) لست من عبدة المعجم، ولكن لفت نظري من زمن فعل لطيف في العربية أظن أننا بحاجة لاستعماله وهو (استناداً إلى القاموس المحيط): وقل في الجبل يقل وتوقل: صعّد ومنه: الوقل بفتح القاف: الكرب الذي لم يستقص فبقيت أصوله بارزة في الجذع فأمكن المرتقي أن يرتقي فيها، ومنه فرس توقله: حسن الصعود في الجبل إذا أمكن أن نستخدم هذه الصفة لوصف الرجل فنقول: رجل توقله أصبح لدينا مرادف جيد للكلمة Alpiniste الفرنسية.

(٢) سأعود إلى معالجة هذه النقطة عند الكلام عن التطبيع فيما بعد.

في كل وجه منهما على حدة لأنهما متكاملان بمعنى أن الوضع التاريخي الحالي للأمة العربية هو حصيلة عوامل دخلت من ضمنها العلاقة الاستعمارية القديمة بأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية من جهة، ومن جهة أخرى يجد التخطيط للغزو الحالي المضاد للثقافة العربية فرصته المواتية من خلال ثغرات النمو التي تعاني منها المرحلة الراهنة للثقافة العربية.

يضاف إلى ذلك أن المشكلة الثقافية في أية بقعة من بقاع عالمنا المعاصر تضرب جذورها عميقة في المناخ العلمي للثقافة وكذلك في المناخ الإقليمي العام بحيث يصعب تحديد ما هو مصطنع من المشكلات وما هو ناجم عن طبيعة مرحلة التطور. ونظراً لما يبدو من وجود مخاطر علمية عملية كبيرة في مثل هذا المنحى من البحث فربما كان من الأفضل التوافر على رسم خارطة التحديات التي تواجه الثقافة العربية اليوم ومعالجة كل نوع من التحدي بطبيعته وخصوصيته مع محاولة مستمرة للإشارة إلى ما يمكن أن يكون طبيعياً في المشكلة أو مصطنعاً أي ناجماً عن تدبير قصدي خارجي.

ومن فضول القول أن يجري التأكيد هنا على أن جزءاً كبيراً من هذه المشكلات سبقت معالجته على يد مفكرين عرب كثيرين، وأن حصيلة هذه المعالجات ستكون مستنداً للمعالجة الحالية[٣].

على أي حال سيجري بحث مشكلة الثقافة العربية في مواجهة الغزو المضاد من خلال المفاصل التالية من المعاناة:

١ - معاناة تحقيق التوازن بين الهوية وبين المعاصرة.

٢ - معاناة التوفيق بين المستوى النوعي وبين الاتصال الجماهيري.

٣ - معاناة تحقيق التجاوب بين اللون القطري واللون القومي العربي.

٤ - معاناة المواجهة الفعالة للغزو الثقافي المباشر. (لبنان، مصر، فلسطين).

٥ - وسيجري في الختام تصور عام لأسس المواجهة الثقافية.

١ - معاناة تحقيق التوازن بين الهوية وبين المعاصرة:

ربما أكثر من أية منطقة أخرى في العالم تدور في المنطقة العربية مناقشات وبشكل يومي حول الهوية الثقافية أو ألـ (نحن الثقافي). نحن نريد أن نكون أنفسنا ونحن نعتدّ اعتداداً كبيراً بحضارتنا وثقافتنا الموروثة. ونحن سليلو أمجاد ثقافية كبرى. نحن مركز الإشعاع الثقافي الإنساني في العصور الوسطى. نحن الذين نقلنا الحضارة إلى أوربا ونحن أساتذتها. نحن الذين نتكلم اللغة العربية المقدسة الجميلة الغنية بمفرداتها وأساليب تعبيرها وقدرتها على التوالد والاشتقاق. نحن الذين احتفظنا دائماً في مجتمعنا للشاعر والمثقف وللعالم بأرفع مكانة، ونحن الذين طلبنا العلم ولو في الصين، ونحن الذين قررنا في موروثنا التاريخي أن العالم يؤتى إليه ولا يأتي (إلى الحاكم) وهكذا وهكذا.

إن لدى العربي من الأسباب ما يجعله يشعر بالاعتداد الثقافي الكامل وبالتالي إلى الاعتقاد أن العظمة الثقافية التاريخية تمد استطالاتها بشكل طبيعي إلى الحاضر وإلى المستقبل ومقابل ذلك يجد العربي المعاصر نفسه في معضلة، فلكي يؤكد هويته وعظمتها الثقافية عليه أن يرتد إلى الماضي ويجيي روائعه وقيمه ويلبس لبوسه لأن الحاضر لم يسعفه بعد بما يطمئنه إلى الهوية الخاصة. ولكن العربي في الوقت نفسه يجد أمامه سيلاً من الأفكار وأساليب التعبير والتقنيات الفنية والتجارب المدهشة في مختلف العلوم الإنسانية والأدب والفنون. وكذلك تواجهه تحديات المتطلبات الثقافية لمجتمع نامٍ ليس في مقدوره أن يضع الثقافة على الرفوف وفي الواجهات من أجل الزينة والتباهي، وإنما تتطلب منه طبيعة المرحلة التاريخية أن يقوم بعملية مزدوجة في وقت واحد:

شقها الأول: أن يجد في الثقافة صورة حياته المعاصرة ومعاناته ومشكلاته وعواطفه وآلامه وآماله وتطلعاته.

شقها الثاني: أن يجد في الثقافة سلاحاً حياتياً يساعده على فهم نفسه وفهم العالم المعاصر، واستكمال أسباب وجوده المعنوية بل تحويل تطوره الاقتصادي والاجتماعي إلى تطور عقلي فني إنساني.

ومن هنا تنبع المعاناة.

ذلك أن المجتمع العربي يسير في تطوره باتجاه التقدم العلمي والتنظيم الاجتماعي على أساس القيم الحتمية للمجتمعات المعاصرة سواء أكانت شرقية أم غربية، وهذه القيم هي: الاتقان التقني، وفرة الإنتاج، المغامرة العلمية، المبادلة العالمية في التقنيات في الإنتاج، الاستهلاك والرخاء، وما أشبه ذلك من القيم.

إن هذه القيم ومثيلاتها وعلى اختلاف التسميات، تفرض طرقها الخاصة في التفكير والتعبير أي تفرض ثقافتها الخاصة.

والمشكلة بالنسبة للعربي المعاصر أنه كلما اقترب من الموروث الثقافي شعر بالإطمئنان إلى هويته - أو إلى المفهوم السائد عن الهوية - ولكنه في الوقت نفسه شعر بالابتعاد عن روح العصر ومشكلاته ومتطلباته. وليس أدلّ على ذلك من الشكوى الرائجة حول انصراف الجيل الجديد عن الثقافة واحتقاره لقيمها. ولقد وجهت هذه التهمة قبل نصف قرن إلى الجيل الجديد، وحين صار الجيل الجديد جيلاً قديماً أو كهلاً ازداد اعتداده بنفسه وتفاخر بمنجزاته الثقافية وأخذ ينعي على الجيل الجديد انصرافه عن الثقافة (أية ثقافة) ويوجه إليه التهمة القديمة إياها.

ومثلما أدرك ابن قتيبة منه القديم أن لكل جيل ثقافته وأن ما هو خارجية أو خارج عن المألوف في عصره يصبح بعد زمن تقليداً ويصبح ما هو مخالف له خارجية وموضع استهجان[٤]، يمكن أن نتصور أن تهم كل جيل باتجاه الجيل الصاعد ما هي إلا

(٣) أعتقد أنه من أمراض التفكير العربي اليوم ما سميته في بعض كتاباتي (ظاهرة إلغاء الآخرين)، أي البدء دائماً من نقطة الصفر والافتراض أن كل ما يكتبه أي إنسان هو فجر جديد وفتح من الله لم يسبق إليه إنسان.

(٤) بالطبع ليست هذه كلمات ابن قتيبة حرفياً، ولكننا نعطيها طابعاً معاصراً أو نعصّرها عشياً مع روح البحث الحالي.

تعبير عن تغيّر الثقافة بتغير الأجيال وانتفاء إسقاط جيل على ثقافة جيل آخر.

وبالمقابل كلما اقترب الإنسان من الاحتياجات الثقافية لمجتمعه المعاصر ازداد شعوره بالابتعاد عن ثقافته القومية واتسعت مساحة تعرضه للتأثر بالمؤثرات العالمية بل ازداد اندهاشه بها وإقباله عليها ليس لأنها أعظم أو أعمق من الثقافة القديمة بل ببساطة لأنها تتجاوب مع إيقاع العصر وروحه ابتداء من القصة القصيرة المفعمة بالتوتر وانتهاءً بموسيقى «الجيرك» المتفجرة، وكذلك لأنها تبدو طازجة وزخمة وقادرة على الاغواء.

والمسألة بعد ليست بسيطة على نحو ما تبدو في هذا التحديد المختصر. ذلك أنه توجد أمام كل فرد وكل جيل وكل طبقة في المجتمع عشرات الاختيارات الثقافية وفقاً للظروف الاجتماعية ومناخ الانفتاح الثقافي. والمهم قبل الوقوف بحدة إلى جانب الأصالة أو المعاصرة الاعتراف الواقعي بوجود المشكل وبوجوب إيجاد حل لها لأن اتخاذ المواقف المتشنجة في هذا المجال لا يوصل أصحابها إلى حقوقهم وإنما يزيد الآخرين حدة في مواقفهم ويعقّد المسألة الثقافية ولا سيما بالنسبة للجيل الناشيء. ومن هنا كان البحث الحالي يجب أن يضع هذه المشكلة في عبارات من مثل:

«معاناة إقامة التوازن بين الأصالة والمعاصرة».

وذلك انطلاقاً من التأكيد على أن الميل الشديد باتجاه الهوية أو الأصالة التاريخية يحمل في داته خطر الانقطاع عن العالم المعاصر وبالتالي عن الجدوى وبالتالي عن إمكان تحقق الأصالة ذاتها التي يحارب المحاربون في سبيلها.

وفي الوقت نفسه نجد أن الجنوح الشديد باتجاه المعاصرة والزي الشائع (الموضة) والبدع بالتجديد والادهاش يحمل في ذلك خطر انقطاع الإنسان أو المجتمع عن تاريخه وعن هويته وبالتالي يجعله معرضاً للغزو ويضعف حماسته التمييزية وقد يصل به إلى الاندثار.

وفي حالتي التمسك الشديد بطرفي المعادلة لن ينفع الإنسان تمسكه لأن المسألة ليست مسألة أهواء، أو حتى تفسيرات معتقدية. إن المسألة مسألة وجود واستمرار - وهذا هو الجانب الحيوي في الثقافة - إذ لا ينفع المجتمع أن يكون شديد التمسك بقيمه مقابل انقطاعه عن الوجود. وكذلك انقطاعه عن قيمه يعرضه لخطر الانقطاع عن الوجود. إن المسألة هي مدى ما يمكن أن يساعد الموقف الثقافي على وجود المجتمع واستمراره، لأنه بغير الوجود - والمقصود الوجود القوي طبعاً - لا تنفع أصالة ولا معاصرة[٥].

ولكن ما ورود هذا الموضوع بالنسبة للغزو الثقافي المضاد؟ في الظاهر تبدو المسألة صراعاً فكرياً أو معتقدياً أو إيديولوجياً داخلياً في المجتمع. ولكن المسألة في باطنها شديدة الاتصال برياح الغزو المضاد سواء أكان ثقافياً أم غير ثقافي.

ولو أخذنا بأقوال كل طرف لوجدنا أن أنصار الأصالة يتهمون كل جديد بأنه دسيسة أجنبية وأفكار مستوردة وبدع مسقطة من الخارج بل يشيعون أن كل جديد في طراز الثقافة إنما يستهدف شيئاً واحداً هو القضاء على ثقافتنا وأصالتنا. وفي مقابلة حديثة جداً مثلا مع العالم الدكتور عمر فروخ نجده يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير فينسب ذوق مرحلة بأكملها في الشعر والفنون وعلى مستوى العالم كله إلى مؤامرة يهودية مدبرة.

«الشعر الحديث والفن الحديث اختراع يهودي أراد به اليهود أن يشوهوا عقول الشعوب. إن اليهود قلة في العالم (هم يدعون أنهم ستة عشر مليوناً - ويبدو أنهم أكثر: ضعف هذا العدد) وهم يطمعون إلى السيطرة على العالم. ولكنهم لا يستطيعون ذلك إذا كان الناس يفكرون تفكيراً سليماً. فلجأ اليهود إلى اختراع هذه الأصول المشوّهة حتى يفقد الآخرون القدرة على المقاومة»[٦].

وبالمقابل لا يكتفي أنصار المعاصرة بدفع التقليديين بالتحجر الفكري والانقطاع عن روح العصر وعبادة الماضي وغير ذلك من الأوصاف، ولكنهم أيضا يثيرون بإصبع الاتهام إلى منابع هذا التفكير، ويربطون بين النفوذ الاستعماري وبين التمسك المتحجر بالقديم بحيث يصبح إذكاء روح الأصالة عملية إلهاء مدبرة من قبل عملاء الثقافة المعادية لصرف أنظار الناس عن الثقافة العصرية التي توظف لخدمة المجتمع. وهم يلاحظون أن التمسك بالقديم يستخدم في أحيان كثيرة حاجزاً ضد الأفكار العصرية والتقدمية والثورية وبعض هؤلاء يدعو إلى ثورة شاملة في المجال الثقافي - إلى تمرد على أنماط التفكير وأشكال التعبير المعروفة وإلى تجاوز العصور القديمة باتجاه التعبير المعافى من القصر، ويعتبرون هذه الثورة مقدمة لتغيير الوضع العربي أي يربطون بالثورة الثقافية الشاملة الجذرية مستقبل الوجود العربي كما هو واضح في كتابات أدونيس المختلفة وربما كان النص التالي من أكثرها وضوحاً.

«هنا يبدو معنى التشديد على أهمية الممارسة الكتابية من حيث هي فعل ثوري بغير البنية الثقافية القديمة. هنا كذلك يتجلى بشكل خاص دور الكاتب العربي في المرحلة الثورية الراهنة. وعمله المباشر هو أن يمارس تفجير مواهبه في هدم القديم وبناء الجديد.

إن المجتمع لا يمكن أن يكون اقطاعياً أو اشتراكياً في آن، كذلك لا يمكن أن يكون ثورياً وتقليدياً في آن، بل إن المجتمع لا يستطيع أن يثور أي شيء، في أي مجال، لحظة يحرص على التمسك بتقاليد ومفهومات وعقائد صاغها وطورها أشخاص عاشوا في عصر غير عصرنا، وبخاصة حينما تكون متناقضة مع الثورة. فمن المستحيل أن يكون الإنسان ماضوياً ومستقبلياً في آن»[٧].

ويصعب الجزم هنا بطبيعة الدوافع التي تذكي الصراع. وأن نسبتها كلها إلى عوامل الغزو الثقافي تلغي حقيقة المرحلة

(٥) سنعود إلى هذه النقطة في باب التصورات العامة لحل المشكلة الثقافية

(٦) فروخ، عمر «عمر فروخ يرد على منتقديه»، الحوادث، ع ١٣٠٥ في ١٩٨١/١١/٦، ص ٧٦، ولم أفهم لماذا استعمل عباره (الأصول المشوهه) في هذا السياق

(٧) أدونيس: زمن الشعر، دار العوده، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨ ص ٨٩.

التاريخية من التطور التي يخوضها الوطن العربي اليوم. ومن الطبيعي في مثل هذه المرحلة أن تظهر اتجاهات متباينة ولكن حدة الصراع والإسراف في الاتهام واللجوء إلى التعميمات غير المتبصرة وكذلك التشبث بالتهم الجاهزة، وعوامل كثيرة مثل ذلك تخلق مناخاً مواتياً لتسرب الدسائس الثقافية المعادية، وفي أفضل حالاتها تسمم الجو الثقافي وتنفر الجيل منه فيشيح عنه ويتجه إلى الثقافات الوافدة ليروي ظمأه ويغذي حاجته الروحية.

ويظل صحيحاً أن توصل الثقافة العربية إلى صيغة فعالة لإقامة توازن خلاق بين الأصالة وبين المعاصرة هو الكفيل بخلق جو طبيعي من التفكير والإبداع.

٢ - معاناة التوفيق بين المستوى النوعي والاتصال الجماهيري:

إن كل إنسان معني بحيوية الثقافة العربية وبمقاومة الغزو المضاد لا بد له من أن يتناول بجدية كافية مسألة الاتصال الجماهيري.

ويبدو الحديث عن الثقافة في الوطن العربي حديثاً عن ظاهرة معزولة عن الناس وعن الحياة. ومن أسف أنه لا توجد لدينا أرقام وإحصائيات على نحو ما يوجد في كثير من البلدان حول انتشار التعليم والثقافة والإقبال على القراء ولكن مع ذلك يمكننا أن نتذكر بعض الأمثلة الصارخة:

١ - إن نسبة الأمية في الوطن العربي تزيد على ٥٠٪ حسب أفضل التقديرات للعام ١٩٨٠.

٢ - إن نسبة القراء بين المتعلمين قد لا تذكر ويبدو أن هناك عوامل عديدة منها طبيعة الثقافة ونظام التعليم، تجعل القراءة هواية لا أثر لها.

وإذا أخذنا بلداً عريقاً في الثقافة والأدب مثل سوريه سنفاجأ أن معدل النسخ المطبوعة من كتاب بحثي يتراوح بين ١٥٠٠ - ٢٥٠٠ نسخة وأن كثيراً من الدواوين، تطبع بمعدل ١٠٠٠ - ١٥٠٠ نسخة، وأن نظام كل من المؤسستين الرسميتين المعنيتين بالنشر لا يسمح بإعادة طبع الكتاب النافد إلا في حالات نادرة جداً.

من المعلومات ما يسمح بالاعتقاد بأن الحال ليس على غير هذا المنوال في البلدان العربية الأخرى، وإذا كانت هناك بلاد عربية مثل لبنان والكويت تصل مستويات أعلى من سورية في طباعة الكتب فمردّ ذلك إلى أنها تتجاوز في توزيعها السوق المحلية إلى أسواق البلاد العربية كلها. وإن هذه الأرقام تبدو هزيلة جداً إذا ما قيست بأرقام طباعة الكتب في الدول المتقدمة التي تصل إلى مئات الألوف وأحياناً إلى الملايين.

كذلك نجد فيما يتعلق بإنتاج الكتب أن الاختيار أمام القارىء العربي محدود جداً، وباستثناء الدواوين الشعرية الكاسدة فإننا يمكن أن نطمئن إلى أن القارىء العربي لا يتعب كثيراً في اختيار الكتاب المؤلف إن في الاقتصاد وإن في الفكر وإن في النقد وإن في الدراسة الاجتماعية.

هناك فقط بضعة كتب مقروءة في كل ميدان من ميادين المعرفة[٨]. وهذا ما يفسر الشهرة السريعة التي نالها كثير من المؤلفين خلال العقود الأولى من هذا القرن، إذ كان ما يؤلفونه هو المرجع الوحيد في بابه باللغة العربية من المحيط إلى الخليج.

تلك هي حال القراءة من الناحية الكمية، أما حال الفروع الأخرى للثقافة ولا سيما الفنون الجميلة (كالرسم والنحت والموسيقى) وارتياد المسرح، والمشاركة في الندوات العامة والمناقشات ومشاهدة المتاحف التاريخية والعلمية، وغير ذلك من النشاطات تكاد لا تصمد لأي بحث بسبب هزالها الشديد.

وما يريد المرء أن يخلص إليه هو أن العملية الثقافية تجري بمعزل عن المشاركة الجماهيرية وأنها تظل محصورة بفئة متعلمة أو نخبة ذات قانون واضح جداً وهو الابتعاد عن الهموم الجماهيرية بما يتناسب طرداً مع ارتفاع المكانة الثقافية، اللهم إلا باستثناءات قليلة معظمها في صفوف الشعراء.

وإن المرء ليتساءل: من هو الكاتب العربي الذي يعلق مصيره على استجابة جمهرة القراء له؟ وأين حلقة الاتصال بين القارىء وبين الكاتب؟ وفي أية مجلة عربية نجد باباً خاصاً لمناقشة الكتب على يد القراء.

ويكاد الإنسان يجرؤ على القول إن مكانة العدد الأكبر من الكتاب العرب - ربما الشعراء بدرجة أقل - نابعة إما من موقف النخبة منهم أو من علاقاتهم العامة أو السياسية أو من مركزهم الاجتماعي[٩].

وصحيح أن الثقافة العربية لا تحمل التبعة كلها في مثل هذه الظاهرة. فهناك عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وتعليمية تفعل فعلها في مرحلة انتشار الثقافة، ولكن علمتنا التجربة في مختلف البلدان أن الثقافة لها اغواؤها واغراؤها وأنها حين تمس مصلحة الجماهير وهمومها المشتركة بجرأة وشجاعة فإنها يمكن أن تلقى الإقبال المنتظر، وأن ابتعادها عن هموم الناس ومصالحهم هي الداء القاتل لها.

إن الشعبية الفائقة التي يتمتع بها شاعران معينان على مدى الوطن العربي كله، وأقصد نزار قباني ومحمود درويش، لهي أكبر دليل على أن القارىء موجود والمستمع موجود.

وهذا الكلام بالطبع يقود إلى مضمون الثقافة وأساليب تعبيرها. ولهذا الموضوع الخطير مجال من البحث غير هذا المجال ولكن يمكن للمرء أن يقول إن المضمون المتأخر (زمنياً) والمتدني (من حيث المستوى) لا يسمح للثقافة العربية بمنافسة الثقافة الوافدة سواء من الشرق أو من الغرب. ونحن الذين نلاحظ أن

(٨) تقول المجموعة الاحصائية لليونسكو (عام ٧٨ - ٧٩) إن الأوربي يختار ما يرغب في قراءته من بين ٦٠٠ كتاب، أما الافريقي فليس هناك ما يعينه إذ يجد ٢٨ كتاباً فقط لكل مليون من السكان ولدينا ما يسمح بالاعتقاد أن الوطن العربي يقف في مرتبة وسط بين الاسيوي والافريقي أي أنه يمكن أن يكون لدينا خمسون كتاباً لكل مليون من السكان، وتحمل إحصائيات اليونسكو أرقاماً مخيفة حول التفاوت بين العالم المتقدم والعالم النامي في مجال إنتاج الكتب. فمثلاً تمثل سكان أوربا ١٥٪ فقط من سكان العالم في حين تنتج نصف الكتب المنشورة في العالم وبوجه عام تبلغ إنتاج البلدان المتطورة ٨٤٪ من إنتاج الكتب في العالم ويبقى للبلدان النامية ١٦٪. وهناك إحصائيات كثيرة غريبة تجعل الجانب الكمي من الغزو الثقافي شديد الأهمية.

(٩) أتمنى من صميم قلبي أن أكون مخطئاً أو مبالغاً في هذه الأحكام

الكتب المترجمة ما زالت تحظى حتى الآن بوافر الاحترام عند القراء في حين أن الكتب الموضوعة تقابل بالإعراض غالباً.

لا نستطيع أن نفسر الأمر بأنه مجرد «مركب نقص ثقافي» كما يقول بعضهم. **وستظل الثقافة العربية أسيرة عبادة الماضي من جهة وهوس الاغتراب من جهة ثانية ما لم تتجه بجدية إلى الهموم اليومية التي يطرحها الواقع الاجتماعي المتغير وما لم تضع في حسابها الدخول اليومي إلى محراب الثقافة لفئات جديدة من الناس لها مشكلاتها وهمومها وتطلعاتها الجديدة.**

وهنا أرجو أن أشير إلى أن الشهرة الموقوتة التي يكتسبها بعض الشعراء والأدباء نتيجة ركوبهم الموجات السياسية أو النفسية التي تكتسح المجتمع العربي في كل بضع سنوات ليست بالضبط ما نعنيه بمصطلح حيوية الثقافة من خلال جماهيريتها.

إن هذه الموجات الدافقة من أدب المناسبات تتسلق المناسبة نفسها وتضع شعاراتها في كلمات متملقة لعواطف الجماهير وتذوب سريعاً مع ذوبان المناسبة. وبالتالي لا يمكن أن تكون مستنداً لثقافة حية. بل على العكس من ذلك يجرؤ المرء على القول إنها سبب من أسباب العكوف التدريجي للجماهير عن المشاركة الثقافية وذلك بسبب ما تخلفه من استجابة سلبية لدى الجماهير بعد أن تكتشف أن الثقافة تسمح لنفسها بالمشاركة في لعبة الديماغوجية السياسية و(فبركة) العواطف العابرة.

وليس في هذا الكلام تعريض بمبدأ التفاعل بين الأدب وبين النضال السياسي والاجتماعي، ولكنه تنبيه إلى مخاطر المشاركة الزائفة غير المسؤولة.

إن الأدب المسؤول، والفن المسؤول، والفكر المسؤول هو الوجدان الحي للناس وحين يسمح لنفسه بأن يكون تشويشاً طفيلياً على حاستهم الوجدانية فإنه لا يكون ثقافة ولا يكون مسؤولية وقد آن لنا أن نرسم الخط الفاصل بين الاعلام والثقافة فوظيفة الاعلامي غير وظيفة الكاتب والفنان في مجال الكفاح والتبشير.

وهكذا يتضح أن الهوة قائمة وخطيرة بين النخبة المثقفة وبين الجمهور الذي[١٠] بدونه لا تعيش ثقافة، وبسبب من خطورة هذه الهوة فإن المثقف العربي يلقى عنتاً كبيراً في إقامة التوازن المنشود بين العمق والجدية والابتكار وبين متطلبات التفاعل مع الجمهور والتواصل معه ليس من خلال استلهام معاناته وكفاحه ومشاعره فحسب ولكن أيضاً من خلال إشراكه في التفكير والتعبير والتذوق.

٣- معاناة تحقيق التجاوب بين اللون الفطري المحلي واللون القومي العربي:

إن حالة التجزئة التي تعاني منها الأمة العربية تعكس نفسها بقوة على الوضع الثقافي. وحين يتحدث المرء عن الثقافة السوفياتية (مع تعدد القوميات) وعن الثقافة الصينية (مع اتساع الرقعة ووصول عدد السكان إلى ما يقرب المليار) وعن الثقافة الفرنسية (مع امتداداتها الخاصة خارج حدود فرنسا) وعن الثقافة الهندية (في شبه قارة متعددة اللغات والآداب)، حين يتحدث المرء عن هذه الثقافات وأمثالها فإنه يضع في ذهنه الصعوبات التي تعترض فاعلية كل من هذه الثقافات في سعيها لتأكيد هويتها وتأدية وظيفتها لمجتمعاتها. ولكن حين يتحدث الإنسان عن الثقافة العربية المعاصرة فإنه يضطر أحياناً للبدء بالتأكيد على أن هذه الثقافة واحدة الشخصية موحدة الأهداف وأنها ثقافة مجتمع انقسمت دوله إلى اثنتين وعشرين ولكنه ساعٍ إلى تحقيق وحدته أو تماسكه على الأقل.

وليس هذا كلاماً يمكن أن يقوله الإنسان ويمضي مغمضاً عينيه عن الواقع الثقافي القطري الذي بدأ يتشكل في كل قطر من الأقطار العربية على حدة.

إن النزعة الإقليمية ولدت مع ولادة الثقافة العربية الحديثة في عصر النهضة. وهي مظهر واضح جداً من مظاهر الغزو الثقافي، فكما أنه - على المستوى السياسي - كرست اتفاقية سايكس بيكو تقسيم منطقة المشرق العربي إلى دول تتبع كل واحدة منها السلطة البريطانية أو الفرنسية فإن التخطيط الاستعماري كان قد عمل منذ البدء على الالحاق الثقافي لكل قطر من الأقطار المحتلة بالدول الاستعمارية. ولعلنا نتذكر أنه منذ أن قرع جرس النهضة الحديثة في مطلع القرن التاسع عشر كانت قد سبقت ذلك بسنوات حملة نابليون بونابرت على مصر عام (١٧٩٨) التي كانت تهدف إلى تحويل مصر إلى دولة عصرية على الطراز الفرنسي مما يساعد على إبقائها موالية لفرنسا إلى الأبد. وبعد ذلك بثلث قرن تماماً عملت فرنسا (١٨٣٠) على احتلال المغرب العربي وعلى محو هويته وإلحاقه ثقافياً بفرنسا وإلحاق الجزء الأكبر منه سياسياً بها كذلك. وفي الوقت نفسه كانت الإرساليات تتنافس في لبنان على كسب ودّ الطوائف المختلفة وصبغها ثقافياً بصبغة الدولة صاحبة الرعاية.

ولو نظرنا إلى الخارطة الثقافية العربية اليوم لوجدنا أن النتوءات الإقليمية البارزة منها هي هذه المناطق الثلاث وليس يعني ذلك أبداً أن اللون الغالب على ثقافة هذه المناطق هو اللون الاقليمي، وليس يعني ذلك أي مساس بالانتماء الثقافي والقومي لهذه الأقطار، إنما يعني من الناحية الواقعية أنه، بسبب من الظروف التاريخية للعلاقة الاستعمارية، خلق في هذه المناطق مناخ مشجع على بروز النزعة الإقليمية في الثقافة، مع تفاوت شديد في هذه النزعة بين السعي لتحقيق اللون الخاص لكل منطقة وبين الإيغال في ذلك إلى درجة الانعزالية والتحلل من الثقافة العربية، وفي أحيان كثيرة الجهر بالتفاعل مع الثقافة المعادية.

ولكن النزعة الإقليمية لا تقتصر على هذه المناطق فحسب وإنما هناك نتوءات واضحة هنا وهناك في الخارطة الثقافية. والقاعدة العامة بهذا الصدد تقول إن كل صوت مهما كان غبياً أو خافتاً أو جاهلاً يجد تشجيعاً فورياً لدى كثير من وسائل النشر الثقافي ولا سيما إذا كان يضرب على وتر الانسلاخ عن الثقافة

(١٠) سأعود إلى معالجة هذه النمطة من خلال (التصور العام لأسس الواجهة الثقافية).

العربية أو المُروق من اللغة العربية، وسرعان ما تتجاوب له أصداء في صحافة الغرب وأوساطه الثقافية.

وهنا يجب أن نفرق تفريقاً دقيقاً بين النزعات الإقليمية الانعزالية الساعية إلى الانسلاخ عن الثقافة العربية وتسميمها.

وبين الواقع الثقافي المحلي الذي أخذ يترسب في كل قطر عربي على حدة:

أولاً: بسبب التباعد التاريخي في القرون الماضية.

ثانياً: بسبب ما يسود علاقات الأقطار العربية من تنافر وتنافس وتذبذب وغير ذلك من أنواع العلاقات السياسية السلبية التي تنعكس - بشكل لا تعرفه أي منطقة أخرى في العالم - على العلاقات التجارية والاجتماعية والثقافية والتعليمية (بما في ذلك المناهج ويا للعجب) والإعلامية.

إن هذا الواقع السياسي المتصف بالحدة والتشنج وعدم التمييز في أشكال العلاقات يؤدي بالضرورة إلى نمو بيئات ثقافية ذات تلوين محلي يكثر أو يقل.

وبالطبع تساعد على هذا الأمر عوامل تعليمية كالمناهج وعوامل تاريخية ثقافية كعامل اللغة الأجنبية السائدة وعوامل أخرى كثيرة تخرج عن نطاق البحث الحالي.

يضاف إلى ذلك وجود تاريخ ثقافي حضاري في كثير من المناطق سابق لتاريخ الثقافة العربية كما تحددها المصادر المتشددة، فهناك الفرعونية والفينيقية والحضارات السورية القديمة والثقافات القديمة في العراق وفي الشمال الافريقي. وقد غبرت فترة من الزمن كان فيها مجرد الإشارة إلى هذه الحضارات يعد هرطقة ومُروقاً من الثقافة العربية، وولد هذا التشدد - الذي كان له ما يسوِّغه سياسياً - ردود فعل متشنجة تمثلت أحياناً في المفاضلة بين الحضارات القديمة والحضارة العربية على الطريقة الشعوبية السابقة.

ولكن يبدو للمراقب اليوم أن هناك تفهماً عاماً بدأ يسود الجو الثقافي العربي لأهمية هذا التاريخ الثقافي القديم المتنوع وعلاقته الإيجابية (لا السلبية ولا التنافسية) بالثقافة العربية. ومن أوضح ما سمعته بهذا الصدد كلمة الأستاذ أحمد عباس صالح خلال مناقشات مؤتمر الأدباء العرب الثاني عشر بدمشق جاء فيها:

« وأنا عندما أتكلم عن الفرعونية لا أريد أن يتجاهل الناس التاريخ القديم، إنما مسألة استغلال الفرعونية استغلالاً سياسياً شيء واحترامنا لتاريخنا القديم سواء أكان أشورياً أو بابلياً أو فنيقياً شيء آخر.... »[11].

إلا أنه يبقى صحيحاً أن الثقافة العربية بعد كل هذه التطورات تعاني من صعوبة تحقيق توازن فعال بين الثقافة القومية الشاملة وبين التلوين المحلي للثقافة العربية في مراكزها القطرية المختلفة، وهو تلوين مستند إلى عوامل تاريخية أخذت تغذيها مجدداً خصوبة الاكتشافات الأثرية من جهة ورداءة المناخ السياسي - الثقافي بين الأقطار العربية من جهة أخرى - على أن المؤثرات الراهنة لهذه المشكلة لا تعطي صورة قاتمة إلا من ناحية المحاولات الاستعمارية المستمرة لاستغلال هذا الواقع من أجل دفع نزعات إقليمية معينة باتجاه الانسلاخ والانعزالية، وقد أثبتت الثقافة العربية حتى الآن أنها متينة ومتماسكة وقادرة على الصمود في وجه مختلف الهزات والاتجاهات.

٤ - معاناة المواجهة الفعالة للغزو الثقافي المباشر (لبنان ومصر وفلسطين المحتلة)

إذا كانت المظاهر السابقة التي حاول الغزو الثقافي النفاذ من خلالها مظاهر طبيعية أي ناجمة عن عوامل تاريخية اجتماعية موضوعية، فإن هناك مظاهر معينة في الثقافة العربية يمكن أن تكون نتيجة مباشرة للغزوة الثقافية المدبرة، وتتمركز هذه المظاهر في ثلاثة مجالات:

الأول: تيار الثقافة الانعزالية ولا سيما في لبنان ومصر.

الثاني: الاتجاهات الانعزالية والغزو الثقافي الصهيوني لمصر.

الثالث: الغزو الصهيوني المنظم للثقافة العربية الفلسطينية.

ولكل واحد من هذه المجالات جوانب متعددة يمكن أن يذهب فيها القول مذاهب. وسوف نحاول فيما يلي أن نقصر الحديث على ما هو مهم وأساسي ومفيد في إعطاء فكرة واضحة عن مخطط الغزو المبيت.

أ- تيار الثقافة الانعزالية في لبنان:

ما أكثر ما يقال عن انتشار الأدب الانعزالي في أوساط معينة في مصر ولبنان والمغرب العربي.

ولقد أوضحت سابقاً وجود التباس كبير بين اللون المحلي القطري في الأدب الذي يمكن أن يكون واقعاً مشروعاً في الإطار الأشمل للثقافة القومية وبين الأدب الانعزالي الذي يقرب أن يكون نوعاً من (الشعوبية الجديدة) هادفاً إلى الخروج عن إطار الثقافة العربية بل إلى النيل منها وتحقيرها لصالح ادعاءات التفوق الثقافي الحضاري لطائفة معينة أو إقليم أو طبقة، على أن الأمر يختلف اختلافاً شديداً بين تيار انعزالي وآخر حسب الظروف السياسية والاجتماعية السائدة بل إن هذه الظروف نفسها تبدّل وتغيّر من أولويات المعتقدات الانعزالية ومن التركيز على بعضها دون بعض وفقاً لما تراه زعامات الطبقة الحاكمة من مصلحة آنية لها في هذه المرحلة أو تلك ووفقاً للتأثيرات الاستعمارية أيضاً بحيث يصح القول إن التيارات الانعزالية في الوطن العربي ليست قائمة بذاتها وإنما هي حالة كامنة يمكن للتطورات السياسية والاجتماعية أن تتيح لها فرصة البروز كما يمكن للخطط الاستعمارية المباشرة أن تعطيها أيداً ودفقاً وتسلط عليها الأضواء المصطنعة.

وفيما يتعلق بلبنان يحسن التنبيه بقوة إلى أن الفكر الانعزالي الذي يشجع الثقافة الانعزالية ليس من صنع المسيحيين إجمالاً فعلى العكس من ذلك كان الكتاب المسيحيون الكبار في

(١١) وقائع المؤتمر العام الثاني عشر للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ومهرجان الشعر الرابع عشر، دمشق، ج ٣، ص ١١.

مطلع هذا القرن مثل أمين الريحاني وميخائيل نعيمة ومارون عبود ورئيف خوري، وجبران، والياس أبو شبكة، وشفيق المعلوف وغيرهم، كانوا دعاة نهضة وتحرر وديمقراطية مع غلبة كاسحة للاتجاه العلماني الداعي إلى قيام مجتمع يبنى على قاعدة «المواطنية لا الطائفية، على قاعدة القومية العلمانية الجامعة لشتات الأمة»[١٢].

وإذن يجب أن نبحث عن الفكر الانعزالي في مصلحة الفئة المتسلطة على قطاع من المسيحيين في لبنان يتمثل بوجه خاص في الموارنة، ويقوم هذا الفكر على إنكار انتماء لبنان العربي وإحياء الرابطة الفينيقية حضارياً والنظر إلى لبنان على أنه ملجأ الأقليات الهاربة من الطغيان الديني والعرقي أي اعتبار لبنان فينيقياً على المستوى الحضاري وملاذاً ديمقراطياً على المستوى السياسي. ويترتب على هذا الاعتقاد تصور سياسي لواقع لبنان الحالي يتمثل فيما يلي:

- لبنان نتاج ماروني، من حيث الواقع التاريخي.
- المسيحية اللبنانية تنتمي إلى الحضارة الغربية.
- لبنان جزء من العالم الغربي.

ويلاحظ الأستاذ جورج ناصيف أن الفكر الانعزالي لم يستطع إنتاج أدب انعزالي ذي شأن حتى خلال انكشاف الوجه الحقيقي لهذا الفكر عند اندلاع الحرب الأهلية.

«أما النتاج الأدبي الذي جاءت به الحرب الأهلية، بأقلام كتاب انعزاليين فهو من الضآلة والابتذال والفجاجة السياسية الصارخة بحيث امتنع كافة المشتغلين في النقد الأدبي عن اعتباره أدباً يستحق الدراسة أو يستأهل وقفة تقييم جدية، ويجعلنا نتعاطى معه بوصفه لوناً من ألوان المناشير السياسية الرخيصة، والمفتقرة إلى الحد الأدنى من الإبداع الأدبي»[١٣].

وهناك مسائل كثيرة متعلقة بخطر الانعزالية في لبنان، سواء على المستوى القومي أو على المستوى الثقافي، ليس في مقدورنا أن نتوقف عندها في المجال الحالي، ولكن من زاوية الغزو الثقافي المضاد بالذات يمكن التأكيد على الملاحظتين التاليتين:

١ - الفكر الانعزالي في لبنان لم يرقَ بعد إلى مستوى الايديولوجية[١٤] أي التفسير المنظم المترابط لموقف من الحياة فكري وسياسي واجتماعي واقتصادي.

ولكن هذا الحكم لا يعفينا من التوجس من تطور النزعة الانعزالية الحالية إلى مشروع إيديولوجية منسلخة عن القومية العربية ومناهضة لها، وجميع البوادر تشير إلى هذا الاتجاه. وهو اتجاه يجب أن يؤخذ بجدية كافية لأن هذه الإيديولوجية حين

(١٢) نسب حورج ناصف هدا الحكم، الدى هو صحيح حماً، إلى حواد بولس فى كتابه تاريخ لبنان، دار النهار للنسر ١٩٧٢، ص ٢٥٢. وسوف نعتمد مناقشة الانعزاليه فى لبنان هنا على البحث المنهجى المهم الدى قدمه لمؤتمر الأدباء العرب الثانى عشر السيد حورج ناصف بعنوان «الايديولوجيه الانعزاليه مفاهيمها، سماتها، وسبل أولى معها»، بالإضافه إلى المناقشات التى دارت حول هذا البحث.

(١٣) من البحث المشار إليه سابقاً لجورج ناصف، وهو منشور فى وقائع «المؤتمر العام الثانى عشر »، ح ١، ص ١٢١ - ١٦٦، والمقطع المستشهد به منشور فى ص ١٢٧

(١٤) مع العلم أن جورج ناصف سمى هذا المصطلح باضطراد الفكر الانعزالى

تكتمل - ولا سيما من خلال تطورات الحرب الأهلية اللبنانية والتدخل الإسرائيلي السافر إلى جانب الانعزاليين - لا بد أن تأخذ موقعاً مادياً للأمة العربية ربما على نسق الصهيونية، مما ينفي إمكانية معالجتها بوصفها ظاهرة انشقاق داخلي وإنما تصبح ظاهرة من خارج إطار الأمة العربية فكراً وسياسة، وهنا الكارثة. وبالطبع يؤمن المرء أنه يوجد في لبنان من الرصيد القومي والنضالي والتقدمي والثقافي والعربي ما ظل حتى الآن قادراً على التصدي لهذه النزعة، ولكن مشكلة التدخل الصهيوني السافر تعطي للمعركة أبعاداً أشدّ خطورة مما كانت تبدو عليه من قبل.

٢ - على الرغم من صحة ما قاله جورج ناصيف عن تهافت «الأدب» الانعزالي، فإنه يبقى مهماً الإشارة إلى أن الثقافة الانعزالية غير مقصورة على الأدب، وقد ظهر خلال السنوات القليلة الفائتة مؤلفات تاريخية وفكرية حول لبنان والمنطقة تعدّ تثبيتاً منهجياً للمفهومات الانعزالية، وساعد على ذلك فتح الفروع الثانية للجامعة اللبنانية في المناطق الانعزالية إذ بدأت تتكون هنا بيئة تعليم عال وبحث علمي. يضاف إلى ذلك أنه في مجال الأدب واللغة ظهرت قبل الحرب الأهلية نزعات خطيرة إلى الاستخفاف بالأدب العربي وإلى إنشاء تيار شعري باللغة الفرنسية وإلى الاستعاضة عن اللغة العربية باللهجة اللبنانية المحلية وإلى كتابة هذه اللهجة بالأحرف اللاتينية. وقد درج الآن نسبياً مصطلح «اللغة اللبنانية» ولا سيما على يد شاعر أكرمته العروبة كل إكرام وهو سعيد عقل. والمعروف أن الجدار اللغوي هو عامل أساسي جداً في حفظ الثقافة[١٥].

ومن الضروري أن نتذكر أخيراً أن التيار الانعزالي في لبنان لم يستطع أن يعزل لبنان الثقافي عن جذوره العربية، وعلى الرغم من أن ظروف الحرب الأهلية هي المناخ الأكثر مواتاة للثقافة الانعزالية فإن هذه الثقافة ظلت معزولة، وظل لبنان مركز إشعاع للثقافة القومية العربية، ولثقافة المقاومة الفلسطينية، وذلك بفضل ما فيه من مراكز أبحاث حديثة ودور نشر ناشطة وصحافة متطورة وغير ذلك من وسائط الثقافة الفعالة.

ب - الاتجاهات الانعزالية والغزو الثقافي الصهيوني لمصر:

عرفت مصر في السابق تيارات انعزالية قادها بعض المثقفين الليبراليين في عهد السيطرة الاقطاعية والبورجوازية الذين اعتقدوا أن التمسك بالثقافة العربية هو التأخر وأن الإنسلاخ عنها يتيح مجال التقدم، وكان النمط الأوربي الليبرالي هو المثل الأعلى لهم، وحين أعوزتهم ركيزة تاريخية بديلة عن التراث العربي لجأوا إلى الفرعونية وجعلوها مستنداً لهم، وقد كان للمكتشفات الأثرية الفرعونية صدى كبير بينهم تماماً مثلما كان للمكتشفات الأثرية الفينيقية صداه الكبير في لبنان. على أنه من الصعب

(١٥) أنظر مناقشات أخرى حول الأدب الانعزالى فى لبنان لكاتب هذه السطور ولعدد من الزملاء فى الجزء الثالث من وقائع المؤتمر العام الثانى عشر، المشار إليه سابقاً ولا سيما ص ٢٠ - ٢٤

القول إن هناك تياراً سياسياً إقليمياً انعزالياً متبلوراً في مصر مشابهاً لما هو موجود في لبنان. وإنما هناك نزعات فردية على الأغلب وذات طابع ثقافي كانت تظهر بين حين وآخر لا سيما في فترات النكسات والانهزامات التي عانت منها مصر منذ القرن التاسع عشر مثل هزيمة محمد علي، وهزيمة إبراهيم باشا، ونكسة الثورة العرابية، وغيرها....

والقاعدة أنه حيثما وجدت ضرورة للبحث عن إيديولوجية بديلة كان الكتاب المتأثرون بالمناخ الليبرالي البورجوازي المتأورب يرفعون رؤوسهم منادين بالأمور التالية على تفاوت شديد بينهم في التركيز على عنصر دون آخر[١٦].

١ - تراث مصر الحضاري يتألف من الفرعونية، وليست الصبغة العربية الإسلامية سوى مرحلة عابرة.

٢ - مستقبل مصر كامن في انتهاج الطراز الأوربي من الحياة والمدينة، والمنقذ الأساسي لها الأوربة الكاملة.

٣ - الإطار السياسي الاقتصادي لمصر ليس الوطن العربي ولكنه البحر الأبيض المتوسط.

ويصاحب هذه النزعات عادة تفاوت شديد في الموقف الثقافي من الماضي العربي فبعض الكتاب لم ينظروا باحترام إلى هذا الماضي مثل حسين فوزي، ولكن معظمهم لم يستطيعوا إنكاره، وفي حالات القوة السياسية نهلوا منه وحاولوا إحياءه وتحقيقه وتفسيره، وبعضهم كان متعلقاً به تعلقاً واضحاً على الرغم من دعوات الفرعونية والأوربة، وأبرز هؤلاء طه حسين ومحمد حسين هيكل.

ولقد لعبت الظروف السياسية التي مرت بها مصر دوراً كبيراً في تلوين المناخ الثقافي بحيث يصعب إعطاء حكم تصنيفي حول أدباء مصر من ذوي الأسماء اللامعة ولكن من بين هؤلاء جميعهم يبرز اسم حسين فوزي وتوفيق الحكيم[١٧] ولويس عوض بوصفهم الأقل اتصالاً بالثقافة العربية والأكثر استعداداً للتعامل مع الأفكار الهجينة والمدسوسة.

وليس هذا المجال مجال تصنيف الكتاب ونبش ماضيهم، ذلك أن هذا الموضوع يثير شجوناً كثيرة لأن عدداً كبيراً من كتاب مصر أسهموا ولا سيما في الخمسينيات وبعد ثورة ٢٣ يوليو في خلق أرضية واسعة للمفهومات الثقافية العربية وكانوا المجلين في مختلف ميادين القول.

وكثير من أولئك الذين يلهثون اليوم وراء التطبيع ليسوا انعزاليين أو تطبيعيين بالمفهوم الثابت لهذه الكلمة وإنما هم انتهازيون بالدرجة الأولى ومستعدون لركوب أية موجة راجحة، وبالطبع هذا لا يعفهم من المسؤولية ولكنه يعفينا من الاعتقاد بوجود تيار انعزالي متماسك في مصر.

وهكذا بعد زيارة السادات المشؤومة إلى القدس وبدء العلاقات مع مصر كان الكتاب الأكثر انتهازية أو الأكثر بعداً عن الوطن العربي وقضاياه مثل حسين فوزي هم أول المتهافتين على زيارة العدو الإسرائيلي، ويجب التأكيد، تصحيحاً لما هو شائع أن هؤلاء ليسوا ضد الثقافة العربية فحسب بل هم ضد مصر وثقافتها وسيادتها أياً كان لون هذه الثقافة والسيادة، وقد أفرزت عملية التطبيع مع مصر أسماء جديدة ربما كان أنيس منصور (أسوأها سمعة وأقلها حياء).

وعلى الرغم من أن الكتاب الذين انزلقوا في عملية الممالأة للعدو هم قلة في العدد فإنهم خلقوا مشكلة أدبية تربوية، لا على مستوى مصر ولكن على المستوى العربي بوجه عام، ذلك لأن مصر كانت وما زالت وستبقى مركز إشعاع للثقافة العربية، وقد نشأ جيل عربي كامل على التعلق بكوكبة من الكتاب المصريين وكتب عنهم الكثير في الأدب العربي والثقافة العربية، والآن تخلق علاقات بعضهم مع الثقافة المعادية مشكلة حادة تستدعي إعادة النظر في تقييمهم، ومن هؤلاء على سبيل المثال بالإضافة لمن سبق ذكرهم: دكتور زكي نجيب محمود، دكتور نجيب محفوظ[١٨] صلاح عبد الصبور، يوسف إدريس.

وهناك أسماء أخرى أقل أهمية مثل صلاح جاهين رسام الكاريكاتير، وفي وهمنا أنه يمكن التفريق بين من كانت لديه في الأصل أفكار انعزالية وبين من انساق وراء التيار دون خلفيات سلبية، وفي جميع الأحوال يحسن التروي في هذا الموضوع وبحثه من جميع جوانبه على يد هيئات مختصة، وبالطبع هذا الكلام يتعلق بإعادة تقييم آثارهم الماضية أما ما يقدمونه حالياً فيسري عليه حتماً حكم المقاطعة والإدانة.

وإن المعلومات عن عملية التطبيع متوفرة في كل مكان، وتعنى الأجهزة الرسمية العربية والمنظمات الوطنية المصرية بتقصيها، وقد أصبح ملف (التطبيع) ضخماً الآن لأن العدو الصهيوني ألح على الإسراع في هذه الناحية من جهة، ولأن سلطات النظام الخائن سهلت الأمر عليه وأزالت كل عقبة ممكنة من وجهه، وليس من الممكن هنا الدخول في تفصيلات هذا الملف بل يجد المرء صعوبة في تنسيق الأفكار المتعلقة بالتطبيع الثقافي لأنه كلما أمعن النظر وجد أن التطبيع متصل بمختلف مستويات الحياة العربية في مصر، ولا يمكن فصله عن النواحي الاجتماعية والتربوية والاقتصادية والسياسية وغيرها، إنه بكلمة واحدة حملة شاملة لنفي الهوية المصرية والعربية، إنه نفي مصر

(١٦) من أجل التوسع أنظر
صالح، أحمد عباس: الأدب الانعزالي في مصر، في وقائع (المؤتمر العام الثاني عشر...) ص ٩٥ - ١١٧.

(١٧) للدكتور غالي شكري رأي مختلف في توفيق الحكيم، وقد أعلنه في كتابه عن الحكيم وأيده في ندوة مجلة المعرفة حول. (الغزو الثقافي الامبريالي للوطن العربي) أنظر المعرفة، س ١٩، ع ٢٢٧، كانون الثاني (يناير) ١٩٨١، ص ٩٤ - ١٢٣. إلا أنني أعتقد أن توفيق الحكيم كان من صناعة أجهزة الغزو الثقافي منذ أيام (عودة الروح)، أما في (عودة الوعي) فكان قد بدأ يأخذ دوره للممهد للغزو الصهيوني، وعلاقته بحسن فوري مشبوهة جداً. كما يذكر أحمد عباس صالح.

(١٨) مما كتبه نجيب محفوظ عن العرب.
«ماذا يريد هؤلاء الناس؟ هل يريدون استمرار الحرب إلى ما لا نهاية؟.. ألا يعلمون أن الحرب ضد الحضارة والمستقبل؟ إن على العرب أن يدركوا هذه الحقيقة، وأن يخرسوا أصوات المزايدين التي ترفع مطالبة بالمواقف المتطرفة واستمرار الصراع. إني أريد السلام وأقبله حتى لو اقتضانا التنازل عن جزء من الأرض فالأرض لا قيمة لها بحد ذاتها....» ورد النص في وقائع «المؤتمر الاستثنائي للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية لمواجهة الغزو الثقافي الصهيوني لمصر، وزارة الثقافة، دمشق، تموز (يوليو) ١٩٨٠، ص ١١٥.

ونفي وجودها.

ويتم كل ذلك بتخطيط منظم من العدو الصهيوني لغزو مصر ثقافياً وسلخها عن ماضيها العربي وعن هويتها الخاصة وإضاعة مقودها الثقافي الداخلي بحيث تصبح (سائبة) ثقافياً وفي أسوأ الأحوال بقعة هزيلة من بقاع الثقافة الغربية. ومن هنا حرص العدو الصهيوني منذ البدء على تنمية الجانب الثقافي من العلاقات المصرية الاسرائيلية وأولاها اهتماماً كبيراً. وكذلك أصر على إعطاء أولوية فيما سمي بمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية (٢٦ آذار ١٩٧٩) لمسائل التطبيع الثقافي، فكانت من ذلك إقامة العلاقة على الأسس التالية:

« ١ - يتفق الطرفان على إقامة علاقات ثقافية عادية بعد اتمام الانسحاب المبدئي.

٢ - يتفق الطرفان على أن التبادل الثقافي في جميع الميادين أمر مرغوب فيه، وعلى أن يدخلا في مفاوضات في أقرب وقت ممكن، وفي موعد لا يتجاوز ستة أشهر بعد إتمام الانسحاب المبدئي بغية عقد اتفاق ثقافي ».

ومن يقرأ هذه الاتفاقية يلاحظ الالحاح الشديد فيها على سرعة تطبيق الاتفاق الثقافي ولكن أين هذا الاتفاق الثقافي؟

ووفقاً لما أذيع في حينه قام الفريق أول كمال حسن علي في شهر أيار (مايو) ١٩٨٠ بالتوقيع على تسعة اتفاقات من ضمنها الاتفاق الثقافي، وصرح بعد ذلك أن ثلاثة من هذه الاتفاقات يجب أن تعرض على مجلس الشعب وهي اتفاقات الثقافة والنقل البحري والتجارة.

إلا أن الاتفاق الثقافي لم يعرض على مجلس الشعب بل فرضت على نصوصه سرية مطلقة على الرغم من وجود شواهد كثيرة على أن العمل جار على قدم وساق لتنفيذ هذا الاتفاق، وعلى الرغم من أن مجلس الشعب المصري كان قد وافق أصلاً على مشروع بالغاء المقاطعة الثقافية لإسرائيل. وبالطبع يستنتج المنطق السليم من هذا الموقف أن الاتفاق الثقافي يضم بنوداً مثيرة من جهة وأن عنف مقاومة الأوساط الثقافية والشعبية المصرية لمسائل التطبيع الثقافي تدفع الحكومة إلى التريث بإعلانه.

ولكن الغزو الثقافي الصهيوني لمصر لا يقف عند حد الاتفاق السري الذي تناول كما تشير الدلائل مسائل خطيرة مثل تعديل المناهج وتعديل المواقف الاعلامية وتبادل البرامج الاذاعية والتلفزيونية والمطبوعات والتجارب المسرحية ووقف روح العداء للصهيونية في الكتابات المصرية، بل وصل هذا الغزو إلى مجالات أخرى أبرزها تكوين « مجلس السلام » الذي أعلن عنه إسحق نافون، رئيس الدولة الصهيونية، خلال زيارته لمصر، والذي يتكون من كتاب ورجال دولة وعلماء نفس وعلماء اجتماع، ويهدف إلى الحلول محل (مجلس الحرب) وإلى محو آثاره طبعاً.

وتتم هذه الحملة بتنسيق واضح مع الأجهزة الثقافية الأميركية والغربية المتغلغلة في مصر التي كانت قد بدأت حتى قبل الزيارة المشؤومة بالتمهيد للغزوة الثقافية الصهيونية، ذلك لأن أهداف المسخ الثقافي لمصر مشتركة بين جميع هذه الأجهزة.

كما تقوم هذه الأجهزة نفسها بتسهيل عملية الغزو الثقافي الصهيوني عن طريق خلق منتديات خارج مصر يلتقي فيها المثقفون المصريون مع الصهيونيين والاستعماريين ويكون هذا اللقاء بداءة لأشكال التعاون الأخرى، ولا سيما بالنسبة لأولئك المثقفين الذين يترددون في البدء مراعاة للجو الوطني السائد في المستوى غير الرسمي.

ويمر الغزو الصهيوني الثقافي لمصر من خلال بلبلة الأفكار الوطنية وتشويه المعتقدات القومية والدينية وخلق جو مسموم ضد الثقافة العربية واعتبارها مسؤولة عن تخلف مصر. كما يعمل على قلب المفهومات السائدة رأساً على عقب وتصوير الفكر العربي المناضل في مصر على أنه ناجم عن المرض النفسي والإحباط والعجز، وبذلك يبقى اختيار ثقافي واحد أمام الجمهور المصري، وهو الاستسلام الكامل للثقافة الغربية، ولكن هذه المرة بشكل مختلف تماماً عن عصر النهضة، هذه المرة بدون حركة إحياء قومية من جهة، وعن طريق أجهزة الثقافة الصهيونية ومن خلال مفهوماتها وتكويناتها الخاصة من جهة أخرى.

ويلوِّح الغزو الصهيوني بالمفهومات البراقة مثل التحضر والديمقراطية والحرية الليبرالية والانفتاح الفكري والبعد عن التعصب والعالمية والتعاون الدولي وتعطي هذه المفهومات مضامين خاصة تجعل منها عنوانات لمحاربة الثقافة العربية والوطنية والأفكار التقدمية، ولقطع الطريق على الجماهير الشعبية في المشاركة بثقافة النخبة وكذلك لدمغ كل موقف وطني تقدمي وحدوي بالتعصب وضيق الأفق.

وتسخر الإمكانات المتطورة الصهيونية والغربية لتنفيذ هذا المخطط وهي إمكانات الترجمة والنشر والاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح والأجور السخية بحيث تشكل كلها جواً من الإغراء المادي والنفسي تأمل الأجهزة المعادية أن تضعف بالتدريج المقدرة على مقاومته.

إن الغزو الثقافي الصهيوني لمصر شديد الخطورة بسبب اتصاله بالغزو الثقافي الامبريالي، وبسبب قرب مصر من إسرائيل، وبسبب وفرة الدراسات الاسرائيلية المتعلقة بمصر بالذات، لأن ما يجري اليوم ليس ابن ساعته بل هو نتيجة تخطيط قصدي قديم. على أنه يجب ألا يتصور الإنسان أن النجاح السطحي الذي أحرزه هذا الغزو في السنوات الأولى، ولا سيما لدى فئة من المثقفين الانتهازيين، هو الجولة الأولى والأخيرة. ذلك أن المقاومة الوطنية الشعبية للغزو استطاعت أن تحصره في الإطار الرسمي وفي إطار المجموعة الانتهازية وأن تدمغه ولا سيما في إطار الجامعات حيث تنتصب معاقل المقاومة شامخة وصلبة، مما دفع السادات قبل مقتله بأيام إلى طرد عدد من أساتذة الجامعات بالإضافة إلى اعتقال عدد من الطلبة.

وتشير دراسة إحصائية قدمها الدكتور سعد الدين إبراهيم إلى أنه ظهر في مصر خلال السنوات الأخيرة من حكم السادات وحتى عام ١٩٨٠ مئة وعشرون عملاً أدبياً معارضاً لنظام السادات، كما يشير الدكتور غالي شكري في ندوة له في مجلة

المعرفة إلى وجود ١٧ مجلة سرية ثقافية متخصصة، ويشير إلى وجود مواد لديه تستحق أن تطبع لتعطي صورة عن الكفاح العربي في مصر ضد الغزوة الثقافية المضادة[١٩] وهناك أيضاً النشاط الدائب (للجنة الدفاع عن الثقافة القومية) التي تصدر نشرة (المواجهة). وهناك معظم النقابات والاتحادات الشعبية التي تسهم في المواجهة والمقاومة بما يسمح للمرء أن يؤكد على أن الغزو الثقافي الصهيوني ظل على السطح، على ألا تدعو هذه الحقيقة إلى الاستكانة والتراخي في مواجهة الخطر. وربما كان التصريح التالي للسفير الصهيوني السابق في القاهرة دلالة واضحة على عدم اطمئنان العدو الصهيوني لكل ما يجري:

« إن المثقفين المصريين لم يغفروا لنا مجيئنا وكوننا في مصر، وهم لا يعارضون السلام بل ينشدونه، ولكنهم يفضلون أن يكون السلام مع أي كيان غير محدد كالقطب الشمالي مثلاً، ومن الصعب عليهم أن يسلموا بأن السلام تمَّ توقيعه مع إسرائيل.... إن المثقفين المصريين لم يغفروا لنا وجودنا وكياننا، وهم عندما يرون علماً إسرائيلياً فإنهم يشعرون بأن هذا العلم يأكلهم »[٢٠].

وما ينبغي أن نكون متأكدين منه أن الصهيونية ليس عندها ما تقدمه من ثقافة، فثقافتها أصلاً ثقافة مريضة عرجاء واقعة في مشكلة الطريق المسدود لأن متنفسها الوحيد هو الثقافة البهودية القديمة التي يصعب تكييفها مع مفهومات العالم المعاصر. وهكذا نجد أن فاعلية الغزو الثقافي الصهيوني لا بد لها من أن تصب - كما تشير الشواهد العملية لا النظريات فقط - في بحر الغزو الامبريالي، وإذا كان لها من دور خاص في هذا المجال فلن يكون سوى دور التخريب والبلبلة والتشكيك وهو دور خطير لأنه ينمو في حالات الهزائم وانخفاض الروح المعنوية، ولكنه يظل على أي حال دوراً محدود العمق مختلفاً عن التأثير الصاعق لثقافة كالثقافة الغربية[٢١].

حـ - الأرض المحتلة في خضم المواجهة:

تشكل المعركة الثقافية الدائرة في الأرض المحتلة نموذجاً مزدوج المعنى، فهي من جهة تحمل دلالة واضحة على ضراوة الغزو الثقافي الصهيوني وهي من جهة ثانية تحمل تأكيداً جديداً على عجز الثقافة الصهيونية عن مزاحمة الثقافة العربية العريقة المتجددة.

إن كل ظروف الأرض المحتلة تشير إلى أن العدو هو في أحسن وضع يمكن أن يتمناه أي غالب من أجل نشر ثقافته وتحطيم ثقافة الآخر، فهناك:

١ - حالة احتلال مباشرة عمرها بالنسبة لأرض النكبة الأولى ثلث قرن تماماً (١٩٤٨ - ١٩٨١) وعمرها بالنسبة لأرض النكبة الثانية أكثر من سدس قرن (١٩٦٧ - ١٩٨١)، وفي الحالتين استولى العدو على الأرض والحالة الثقافية فيها غير مزدهرة ولا ناضجة ولا متمكنة.

٢ - حالة احتلال شامل لأن الطرف الغازي ملاصق للطرف المغلوب ومتداخل فيه، فالاحتلال لا يتم عن طريق جيش بعيد عن قواعده ولكن عن طريق جيش وسكان واستيطان وتداخل بشري اجتماعي اقتصادي إداري يجعل الأرض المحتلة ساحة مفتوحة بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

٣ - يصاحب الغزو الثقافي أشكال أخرى من الغزو المنظم. غزو بشري عن طريق الاستيطان. وغزو اقتصادي عن طريق إلحاق اقتصاد الضفة والقطاع بالاقتصاد الاسرائيلي. وغزو عسكري مطلق الصلاحية.

٤ - يصاحب الغزو الثقافي غزو نفسي منظم عن طريق اختصاصيين غير غرباء عن ثقافة المنطقة وعقلية أهلها.

٥ - يصاحب الغزو الثقافي للأرض المحتلة تدهور مستمر في الوضع العربي من حولها لا يسمح بإعطاء الصمود الفلسطيني في الداخل أية بارقة أمل، بل إنه يفاجيء المناضلين بموجات من الخلافات تشتت نضالهم وتبدده. ولعل أوضح شاهد في هذا المجال محاولات النظام المصري بالتعاون الكامل مع العدو الغازي خلق مناخ من اليأس يدفع الناس إلى القبول بالحكم الذاتي.

٦ - يصاحب الغزو تقصير عربي رسمي في دعم الثقافة العربية بأهم ما تحتاجه وهو استمرار التعليم العربي ولا سيما التعليم العالي لأبناء الأرض المحتلة في الجامعات العربية. وباستثناء قطرين عربيين يتحملان الآن العبء الأكبر نجد أن باقي الجامعات العربية بما فيها جامعات مجاورة جداً للأرض المحتلة، تغلق أبوابها في وجه الطلبة الفلسطينيين. ويدل الخط البياني لقبول الطلاب الفلسطينيين في الجامعات العربية بوجه عام على تدهور شديد خلال السنتين الماضيتين مما ينذر بأوخم العواقب.

هذه هي صورة الوضع العام في الأرض المحتلة من خلال المنظور الثقافي.

وإذا أتينا إلى الوضع الخاص نجد أن العدو الصهيوني لا يوفِّر أية وسيلة قمعية ضد الثقافة الفلسطينية العربية، فهناك سياسة إبعاد المثقفين، واعتقالهم، ومنع نشر العديد من الكتب، وحجب رخص الإصدار عن المجلات الوطنية، وتشجيع المجلات المشبوهة وهناك قوائم الكتب العربية الممنوع تداولها، وهذه القوائم تتضخم تدريجياً حتى وصل عددها إلى ثلاثين ألف كتاب ممنوع بعد أن اتخذ الحاكم العسكري سياسة منع أي كتاب له علاقة بالقومية العربية أو بالنضال العربي أو بالصراع العربي ضد الغزو الصهيوني، ويقوم جنود العدو باقتحام المكتبات العامة ودور بيع الكتب وكذلك المكتبات الخاصة في محاولة لتطهيرها من كل ما له صلة بالثقافة القومية.

---

(١٩) عالى شكري وآخرون: « الغزو الثقافي الامبريالي للوطن العربي »، مجله المعرفة، س ١٩، ع ٢٢٧، كانون الثاني ١٩٨١. والرقم المنسوب إلى الدكتور إبراهيم مأخوذ من كلام الدكتور عالي.

(٢٠) أنظر: « رساله القاهرة » في جريده البعث، رقم ع ٥٧٠٠ تاريخ ٨١/١٠/٤ وفي هذه الصفحه الأسبوعيه ترد عادة معلومات جيده عن تطورات المقاومة في مصر العربيه

(٢١) من أجل متابعه بعض جوانب هذا الغزو وبعض المقترحات لمقاومته يمكن مراجعة وقائع « المؤتمر الاسبوعي للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافيه... » مذكور سابقاً.

يضاف إلى ذلك مداهمة الفرق المسرحية، وسرقة التراث الشعبي، وطمس الآثار، وغير ذلك من وسائل تغيير الهوية الثقافية العربية. وفي مقررات اليونسكو وهيئة الأمم المتحدة والمنظمات واللجان الدولية الأخرى وثائق كافية حول هذه الموضوعات(٢٢).

وبما أن العلاقة وطيدة بين الثقافة والتربية فلا بأس بأن نشير إلى الاجراءات القمعية الإسرائيلية في هذا المجال مثل تغيير المناهج وتطهير الكتب المقررة وأخيراً إلى طرد الأساتذة والطلاب وإغلاق الجامعات والتحكم برخص افتتاح المدارس بمختلف مستوياتها. وقد أعطى القانون الاسرائيلي رقم ٨٥٤ لعام ١٩٨٠ كل هذه الصلاحيات للحاكم العسكري، وبناء على ذلك جرى إغلاق جامعة بير زيت خلال الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني عام ١٩٨١ لأجل غير مسمى، وبعد مراجعات كثيرة ونتيجة للضجة المحلية ولتفجّر الوضع في الأرض المحتلة عدّل القرار بحيث يستمر الاغلاق لمدة شهرين. وفي الوقت نفسه وجّه الحاكم العسكري إنذاراً شديد اللهجة بإغلاق جامعة بيت لحم إذا استمرت موجة الاحتجاج فيها.

وهكذا يتبين أن العدو الصهيوني جاد في سياسة القمع الثقافي لأنه يخطط لتجريد الأرض المحتلة من هويتها القومية، ولكن ماذا كانت النتيجة:

١ - يزداد التمسك الفلسطيني بالثقافة العربية يوماً بعد يوم ويتصيد الناس ما يصلهم من قطرات الثقافة العربية بشوق وظمأ.

٢ - مع بزوغ الثورة الفلسطينية وعودة الروح إلى الشعب المشرّد عادت الروح الثقافية إلى أهل النكبة الأولى، وبرز عرب عام ١٩٤٨ يقدّمون للوطن العربي وللعالم أدباً جديداً مؤثراً يشكو ويتألم ويناضل لكنه لا يكشف عن عقد مرضية ولا يسقط في قوالب الأسلوبية ولا يبدد طاقته من خلال الخطابية. إنه الأدب الرائد في مرحلتنا العربية المعاصرة. ويكفي أن يذكر المرء محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وإميل حبيبي وكثيرين غيرهم. وصحيح أن هناك مجموعة من عرب الأرض المحتلة ابتعدت بسبب محنة الحياة هناك، عن ثقافتها ولغتها ولكن موجة الوعي الوطني تبدو الآن أقوى من أي تخاذل.

٣ - استطاعت الثقافة الفلسطينية في الضفة الغربية والقطاع أن تتطور رغم حراب الاحتلال، باتجاه العمق والأصالة والوطنية، وأن تعوّض عما كان ينبغي أن تفعله في مراحل سابقة، وهكذا خرجت عن نطاق الشعر والنثر، مع الاعتراف بما حققه الأدب من تطور، وتفتحت فيها نشاطات مسرحية وتشكيلية وفولكلورية، وتمّ تركيز الأضواء على الثقافة الشعبية والتراث الشعبي.

٤ - لا تظهر في الانتاج الثقافي الفلسطيني المعاصر أية تأثيرات صهيونية أو هجينة. بل على العكس من ذلك تتجه الثقافة الفلسطينية لمقاومة الثقافة الصهيونية وتسخر من مرضيتها وانغلاقيتها ولاإنسانيتها، وإذا كان صحيحاً أن الوطن العربي بثقافتيه القديمة والمعاصرة هو المعين الذي تنهل منه الثقافة العربية الفلسطينية في الأرض المحتلة، فإنه يبقى صحيحاً أن الثقافة الفلسطينية، ولا سيما في جانبيها الأدبي والفلكلوري، ترد الجميل مضاعفاً وتغني الثقافة الإبداعية (لا التأليفية) بأصوات وطنية وإنسانية رائعة، فيها من الاحساس الصادق والكشف الثاقب والجمال الأنيس غير المصطنع ما كان يحتاجه الأدب العربي الحديث منذ زمن.

وهكذا تفيد الحالة الخاصة للثقافة العربية في الأرض المحتلة أن الصهيونية ليس عندها ما تقدمه سوى التخريب والتشويش والقمع والانغلاقية والمرضية، وأنها لا يمكن أن تنهض بأية حال في وجه الثقافة العربية بوجهيها التراثي والمعاصر. ولكن هذا الحكم بالطبع لا يسري إلى الأبد والصراع الثقافي قائم ومستمر، وليس من الحكمة أن نبدد أوراقنا واحتياطيينا مثلما فعلنا في مجالات أخرى كثيرة.

ولنتذكر في هذا الصدد أن ما قالته الكاتبة التشيلية فولوديا تايتليوم بشأن الامبريالية ينطبق تماماً على الصهيونية:

« كل ما تفعله الامبريالية متوحش، ولكنها دائماً قادرة على أن تكون أكثر وحشية ».

٥ - تصور تام لأسس المواجهة الثقافية

هناك حقيقة ثابتة مفادها أن الشكوى من عدم كفاية المستوى الثقافي أو من قصور الثقافة أو تدهورها تكرر نفسها على مرّ العصور والأزمان، بحيث يخيل لدارس تاريخ الانتقادات الموجهة للثقافة عند الأمم والشعوب أن الثقافة ظمأ لا ينطفىء أو أن الثقافة مثل أعلى بعيد بعيد يصعب الاقتراب من صورته. وهناك دائماً من يعتقد أن الأقدمين كانوا أكثر عمقاً وأكثر أصالة وأمتن وجداناً وأكثر جديّة في التقرّب من مسائل الثقافة. وهذا ما أكدّه في الماضي بمنتهى الجدية الشاعر اللاتيني أوفيد في قصيدته الطويلة « تغيرات » وما أشار إليه في زماننا بسخرية لطيفة الكاتب البريطاني سمرست موم في سيرته الذاتية « عصارة الأيام ». وليس يعنينا هنا أن نفصل القول في هذا الباب، وجلّ همنا أن تظل هذه الحقيقة ماثلة في خلفية الذهن لدى التعرّض لما يسمى لدى الكثيرين (أزمة الثقافة العربية)، ولما يفضل البحث الحالي أن يسميه (معاناة ومناضلة) لا أزمة ولا محنة.

إن الأخطار تشتد اليوم على الثقافة العربية، وتتكاثر عليها من كل صوب وحدب، مما أفسح المجال للمتشككين ومرضى النفوس وضعاف الإيمان أن يتساءلوا مع المتآمرين والدسّاسين وبنغمة من الشك ملحوظة أو ملفوظة:

(٢٢) من أجل المفصل يمكن مراجعة
منظمة التحرير الفلسطينية - دائرة الإعلام والثقافة
الثقافة الفلسطينية في مواجهة القمع الإسرائيلي ومحاولات الطمس والانتحال.
حزيران ١٩٥٠.
وهذه الدراسة القيمة قدمت أصلاً إلى مؤتمر وزراء الثقافة العرب الاستثنائي (دمشق ١٩٨٠) ونشرت في وقائع المؤتمر، سبق ذكره

- ما هي الثقافة العربية وأين هي؟
- وهل لها دور في حياتنا المعاصرة؟

وبدلاً من الدخول في مماحكات الجدل حول الماهية والكينونة والدور حسبنا أن نذكّر من سوّلت له نفسه النسيان، أن هذه المعاناة التي تعانيها الثقافة العربية اليوم ليست بنت هذا اليوم ولا أمس الذي مرّ، ولا أول من أمس. فلقد مرّت الثقافة العربية في أزمات ومحن وتجارب صعبة، لا يعود تاريخها فحسب إلى منتصف القرن الماضي الذي نسلت فيه ثقافة العرب من أجداث الخمول والنسيان إلى وهج الشمس وتحدي الأحياء، بل يعود إلى عصور الانحطاط، بل يعود إلى عهود مواجهة الشعوبية، بل يعود إلى أول اصطدام هذه الثقافة الصحراوية البكر في عصر الفتوحات ببهرج ثقافة الفرس المغناج، ووهج ثقافة اليونان المعتدة بنفسها إلى درجة الغرور والتفريط.

هذه الثقافة العربية، التي هي منا ونحن منها، كتب لها أن تكون أبداً مناضلة مكافحة معانية لأنها صورة صادقة لأمة تتجدد خلاياها الاجتماعية باستمرار وتحمل بذلك دائماً تفسيرات جديدة لمثلها القومية والإنسانية تضعها أبداً في صدام مع نفسها، مع واقعها القائم، ومع الظروف من حولها، مع الطامعين بها والمتربصين والمتآمرين.

وإذن ينبغي ألا يخيفنا ما يحيق بثقافتنا اليوم من أخطار وما ينتصب أمامها من تحديات. وصحيح أنها تواجه في المرحلة الحالية تحديات نوعية لم يسبق لها مثيل في رأي بعضهم ولكن يبقى صحيحاً أيضاً أن الثقافة العربية اليوم تمتلك من الغنى والدّربة والمرونة ومتانة الجذور ما يجعلها ثابتة مواقع الأقدام، قادرة على الدفاع عن ذاتها ووجودها، غنيّة عن نواح النائحين ونحيب المشفقين، ونحن العرب بعد كل تلك الهزائم وبعد كل ذلك الشقاق والتحزب والانقسام والتفتت لم يبق لنا من جانب قومي مشترك يضيء مثل ثقافتنا الواحدة الصامدة.

وليس يعني هذا الحكم بالضرورة أن الثقافة العربية قد استوت على قدميها ونضجت وأصبحت تقدم لمجتمعها من توعية وتحريض وتربية قومية وإنسانية ما ينبغي أن تقدمه في مرحلة معطاة من الزمن، أو على الأقل ما ينبغي أن تعطيه لقاء ما تأخذه. فالمثقف العربي اليوم - وهو سادن هذه الثقافة وحامل مشعلها - يجد نفسه أسير صعوبة كبرى ناجمة عن ازدواجية المهام الموكولة إليه، وهو حائر مضيّع بين ما يمكن أن يسمى مهمة ثقافية وما يمكن أن يسمّى مهمة فوق ثقافية، ذلك أنه لكي يستطيع المثقف أن يوظف الثقافة لخدمة المهات فوق الثقافية، أي لخدمة الأهداف القومية والاجتماعية والشعبية لا بد من أن يعتمد أسلحة ثقافية صالحة للاستعمال، ولن يفيده أبداً أن يستعمل الأسلحة الصدئة الخربة ويعيش على وهم الاعتقاد بأنه يخدم ويترجم الأعمال إلى أقوال ويرضي وجدانه، إن الرفض بمعناه السلبي لا يقود إلى أي مكان، وإن التقوقع بمعناه الانطوائي لا يقود إلى أي شاطىء أمان. إن المثقف العربي شأنه شأن كل مثقف في العالم الثالث، في عالم المناضلين، مطالب بمهات مزدوجة، عليه أن يفكر ويقول ويفعل أيضاً، عليه أن يحارب بالأقوال والأفعال وعليه أن يكون في صف الطليعة السياسية، وعليه أن يتحلق مع رفاقه حول الدار - كما يفعل الهنود الحمر ويسأل نفسه:

ما الذي ينبغي فعله من خلال الأفكار التي تشعها النار[٢٣]؟

إن المثقف العربي، شأن كل المناضلين، يحمل صليب مسؤولية متعددة الجوانب، إنها مسؤولية الحياة والوطن والمجتمع والثقافة ذاتها، وبغير ذلك يصعب أن يكون للثقافة تأثير في المجتمعات الثائرة أو النامية، بل بغير ذلك يصعب أن يكون للثقافة وجود. وما أجمل ما أوضح فرانز فانون هذه المسؤولية متعددة الجوانب:

« إن مسؤولية المثقف ليست مسؤولية عن الثقافة القومية، بل مسؤولية كلية شاملة عن الأمة بأسرها، التي ليست الثقافة إلا جانباً من جوانبها. فالكفاح في سبيل الثقافة القومية إنما هو كفاح في سبيل الحرية القومية ».

ويستطيع المرء أن يفسر جانباً من الصمود الثقافي للأرض المحتلة بوجود مثل هذه الروح من المسؤولية القومية الشاملة التي لا تفصل الأقوال عن الأعمال.

ومن هنا كان واضحاً أن العلاج النوعي للغزو الثقافي المضاد لا يكمن في وصفات محددة يمكن أن يتناولها المثقف على شكل حبوب أو ملاعق طبية معيّرة، كما أنه لا يكفي في مواجهة الغزو الثقافي أن نحشد الوسائل التقنية لنشر الثقافة، وإن كانت هذه شديدة الأهمية، بل هناك المشكلة الأساسية وهي مضمون الثقافة وطبيعتها وهويتها. وهي مشكلة لا تحل أيضاً بجرة قلم ولا بقرار مجمع علمي ولا مسكوني، ولكنها تحل عن طريق التفكير المخلص والنقاش في جوّ حر ديمقراطي، وقبول الأفكار الجماعية، والتخلي عن عقلية إلغاء الآخرين (السائدة في الجو الثقافي العربي)، والتقرب من المشكلة الثقافية على أنها **عمل عام** (والكلمتان مقصودتان لذاتها)، والتخلي عن النزعة الذاتية المفرطة، بما لا يتعارض مع شروط الإبداع.

ولنترك المقاومة الرسمية والتقنية للغزو المضاد لمن هم أهل لها، وأعني وزراء الثقافة العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية، ولنذكرهم بلجنة المتابعة التي شكلوها في خلال اجتماعهم الأول بدمشق في شهر تموز عام ١٩٨٠ والتي فطنوا لوجودها بعد مضي أكثر من عام على سباتها وقرروا، خلال مؤتمرهم الثاني الذي عقدوه في بغداد في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨١، إحياءها وإعادة العمل بها. ولنقل إن المثقف العربي يضم جهده إلى كل جهد بنّاء منظم يتصدى لمواجهة الغزو المضاد، ولكنه يحاول في الوقت نفسه أن يتلمس وأقرانه طبيعة السلاح الذي يستخدمه في المعركة وفاعليته وأفضل الطرق لصيانته وتطويره.

١ - وإن أول ما يتبادر إلى الذهن في هذا المجال أنه في الثقافة كما في الصحة - تظل الوقاية خيراً من أيّ علاج. وليس المقصود بالوقاية التحريم أو المنع أو الحمية، إن المقصود هنا

(٢٣) التسمية مقتبسة بتصرف من الكلمة الرائعة التي ألقاها الشاعر أرنستو كاردينال وزير الثقافة في نيكاراغوا، في حفل اختتام اجتماع المثقفين من أجل سيادة شعوب أمريكا (هافانا ٥ - ١٩٨١/٩/٧)

وجود أساس متين للثقافة يحصنها ضد المخاطر والهجمات والتسربات. ولسنا لنضع هذا الأساس اليوم أو غداً، فالأساس موجود والثقافة العربية تستند إلى تراث عظيم وسلسلة متواصلة من التجارب الثقافية في مجال تثبيت الذات ومقاومة الغزوات؛ ولكننا نخشى هنا أن يؤتى الحذر من مأمنه، وأن تجد الثقافة المضادة، والغربية على وجه التحديد، طريقها إلينا من خلال شدة تمسكنا بما نعتقد أنه خاص بنا وتأكيد لهويتنا.

ولكي نتجنب هذا المزلق يجب أن نحافظ دائماً على ما هو معاصر وحي وفاعل في الثقافة العربية. ونحن، بوجود الغزوة الصهيونية وبدون وجودها، مضطرون بحكم التطور لمواجهة تجربة المعاصرة. وها نحن أولاء في الثمانينات، فكرنا العربي يتطور، ومجتمعنا العربي يتغيّر بسرعة ربما عجز الفكر عن مواكبتها. والحقيقة الأساسية التي نحسّ بها هي أن انتماءنا للعالم المعاصر أصبح وطيداً مؤكداً ولا مهرب لنا منه لأن عنوان استمرارنا في الحياة. إن انتماءنا إلى العالم المعاصر وثقافته هو بحد ذاته الخطوة الأساسية في مقاومة الغزو الثقافي، لأن الغزو الثقافي لا يواجه بمجرد الرفض أو بمجرد التحليل أو ببناء سور مثل سور الصين. نحن نعيش في منطقة عربية كانت وما زالت مفتوحة للتأثيرات ولن يكون في مقدورنا أن نواجه الخطر من خلال سياسة إغلاق النوافذ. علينا أن نواجهه بإقامة البديل المعاصر، البديل الفكري والفني والحضاري بوجه عام. وبالطبع تعترضنا هنا قضية مضمون الثقافة التي نسميها عربية، وقضية الحفاظ على الهوية والأصالة. وفي وهمي أنه ليس من الصعب أن نقيم المعادلة المنشودة بين ثلاثة محاور تفعل فعلها اليوم في تكوين ثقافتنا المعاصرة سواء شئنا أم أبينا:

أ- الثقافة العربية الموروثة.

ب- المتطلبات الثقافية لمجتمع عربي متطور باستمرار.

حـ- المناخ الثقافي المعاصر في العالم.

ومن بين جميع شعوب العالم الثالث التي تخشى الانسحاق الثقافي، نحن الذين يجب ألا نخاف لأن ما لدينا من الزاد هو دسم وغني وغير قابل للعطب ومحكك من خلال التجارب. وهكذا يحسن أن نتكلم قليلاً عن الغزو تعبيراً عن بنية الثقافة العربية المنشودة.

ولكن يجب أن يعرف المرء - كما أوضحنا من خلال تشخيص الوضع الحالي للثقافة العربية في أول هذا البحث - أن وضع المعادلة المنشودة ليس مسألة سهلة ولا سيما تحت وطأة الصراع الإيديولوجي القائم في الوطن العربي. إن هذا الصراع، بفعل عنفه وحدته، وربما بفعل التجزئة أيضاً، لم يترك لنا إلا القليل مما هو مشترك، ولا سيما عند التصدي للأمور التفصيلية والمواقف الملموسة. ونحن نكاد نفتقد ذلك المقياس العام المشترك الثقافي الإيديولوجي الذي يوحّد بين المثقفين والفلاسفة والسياسيين والعمال والفلاحين فيما يبدو أنه إجماع على خطوط كبرى في التوجه الثقافي عند كثير من الأمم.

كأننا نحن نعيش بلا مسلمات وبلا منطلقات أساسية، وما أن يبدأ أي واحد منا حديثه حتى يخطر للآخر أن هذه النقطة خاطئة وتلك غامضة والثالثة هجينة. ولذلك غالباً لا نصل إلى أية نتائج ولا يتطور حوارنا لأننا نبقى أسرى الخلاف حول كثير من المنطلقات والنقاط الأساسية، وإن دلّ هذا على شيء فإنه لا يدل على أن ثقافتنا مضطربة وهويتنا ضائعة، وهذا ما يود المرء أن يؤكد عليه باستمرار في وجه تفسيرات سلبية كثيرة. إن هذه الظاهرة تدل على أننا غارقون إلى الأذقان - بما في ذلك أولئك الذين يظنون أنهم بعيدون عن الأمر - في عملية تكوين الإيديولوجيا الثقافية العربية المعاصرة. ذلك لأن الإيديولوجيا ليست شكلاً مسقطاً إسقاطاً متعمداً لا من الماضي التراثي ولا من التجارب الأخرى لمجتمعات معاصرة، وكل إسقاط إيديولوجي يحمل في ذاته خطر اضطرابه. وما نظن إلا أن الصراع في الوطن العربي يتجه باتجاه تكوين الإيديولوجيا (الثقافية على الأقل) من خلال العناصر التي أشرنا إليها سابقاً والتي يمكن لها - عندما تتبلور في شكل معادلة واضحة - أن تكون دافعاً قوياً للمثقف العربي والمواطن العربي نحو الإبداع، وحاجزاً واقياً من التشتت والبلبلة وتذبذب المعايير والمواقف.

٢ - والأمر الثاني الذي يخيل للمرء أن التمسك به هو الطريق الطبيعي للتوصل إلى المقياس المشترك والمعاصرة ووضوح الرؤية، وكذلك إلى إحباط الغزو الثقافي هو **الالتزام بالفكر العلمي وبالمنهجية في البحث، وبما يتبع ذلك من موضوعية وشجاعة في مواجهة الذات.** وهنا ينبغي أن نفرق بشدة بين ما هو استعماري أو خاص أو ذو قيمة تاريخية في الحضارة الغربية وبين ما هو إنساني وعلمي وتقدمي وجوهري. إن العملية في هذا العصر هي هادي الحياة وضمانتها باتجاه التطور وكذلك باتجاه الصمود في وجه التحديات. ومن الملاحظ أن الحديث يدور حول العلمية بوصفها منهجاً للتقرب من الحياة لا عن العلم بوصفه تطبيقاً لهذا المنهج. وقد خيّل لبعض المنظرين أنه من الممكن أخذ العلم دون الروح العلمية وذلك تجنباً لما قد تجرّ إليه الروح العلمية من إشكال بالنسبة للتقاليد والمعتقدات والعادات السائدة. وجواباً على ذلك لا بد لنا من التذكير بأن العنصر المشترك بين جميع الأمم المتقدمة في عصرنا الحاضر على اختلاف إيديولوجياتها ومصالحها ونزعاتها السياسية هو **الروح العلمية.** وهذه الروح هي محرك الحياة الحديثة، وهي ليست ملكاً لفرنسا أو لبريطانيا أو للاتحاد السوفياتي أو لأميركا. إنها ملك حضارة العالم المعاصر.

وبالطبع يترتب على الروح العلمية التزام الشجاعة والموضوعية فيما يتعلق بدراسة أنفسنا ومجتمعنا وتراثنا ولغتنا، وليس غير الروح العلمية شيء يفيدنا في فهم أنفسنا وجوانب ضعفنا وقوتنا. وهناك جوانب سلبية في حياتنا علينا أن نجابهها بجرأة بدلاً من أن نرش السكر على الموت كما يقول المثل الشعبي. وعلينا كذلك أن نكف عن الإنسياق وراء التعميمات الكبيرة ووراء بعض المسلمات التي تتضمن إلقاء اللوم على الآخرين، علينا أن نكف عن مضغ كلمتي الاستعمار والتخلف كأنما هما

الحجران السحريان لتسويغ كل عجز وكل تقصير وكل كبيرة وكل صغيرة.. ولقد استطاع الاستعمار في فترة ما أن يطيح بكثير من قيمنا وأن يفسد خط تطورنا، ولكننا الآن أمام تحدي العمل باتجاه بناء قيم جديدة والمفروض أننا أصبحنا نفهم الاستعمار وأصبحنا أكثر قدرة على إحباط مآربه.

ومن أسف أن الإنسان يجد نفسه الآن، بعد مضي حوالي قرن من الزمان على بدء عصر النهضة العربية، مضطراً لأن يكرر الكلام حول أهمية الروح العلمية بما يكاد يذكر بمواعظ المصلحين الأوائل ومحمد عبده على وجه التحديد. وبالطبع نحن نفرق هنا بين العلم وبين ما نسميه الروح العلمية، ونؤكد أن هناك اتجاهات في الوطن العربي، أخذت مجدداً تقوى بفعل عوامل مصطنعة. تحاول أن تصرف الأنظار عن الاتجاه العلمي لمصلحة الخرافة والغيبية لأن ذلك يلائم ببساطة مصلحة الطبقة المسيطرة، وتحاول هذه الاتجاهات أن تختبىء تحت مظلة الأصالة والنقاوة والخصوصية الثقافية[٢٤]،وضد الغزوة الثقافية. وقد أثبتت التجربة أن أكثر القطاعات الثقافية تعرضا للتضليل والدسيسة الثقافية هي الفئات غير المسلحة بالروح العلمية وما يتبعها من موضوعية وتحليل وجرأة في المواجهة.

٣ - والاتجاه الثالث الذي لا بد أن تمضي فيه الثقافة العربية عمقاً هو **الاتجاه الشعبي**، اتجاه التجاوب مع الاحتياجات الثقافية والفكرية لجمهرة الناس في المجتمع العربي المعاصر والخروج من دائرة ثقافة النخبة التي تنظر إلى الجمهور بنوع من التعالي الشديد. وما لم يشترك القارىء العادي والمشاهد والمستمع في تذوق ما تقدمه الثقافة العربية وفي نقدها وفي الإسهام بها فإن الثقافة لن يكون لها دورها المحرض أو العلمي وستبقى تاجاً من الزينة على رأس المثقف المعزول السادر في دفء برجه العاجي. ولقد أوردت في القسم الأول من هذا البحث احصاءات عن عزلة الكتاب العربي. وأود أن أضيف إلى ذلك أن جماهيرية الثقافة كفيلة بأن تحررنا من النظرة التقليدية التي ما زالت سائدة حتى الآن والتي تتركز على الكتاب والقصيدة بوصفها المظهرين الأساسيين للثقافة الرفيعة. إن الاتجاه الشعبي سوف يمنح الحياة للممارسات الثقافية الأخرى وفي مقدمتها المسرح العربي الذي لم يوضع بعد في خدمة الجماهير. وهناك الرسم والموسيقى والنحت. وهناك السينما أيضاً التي قطعت شوطاً لا بأس به في بعض البلاد العربية ولكنها تعاني من تهافت أفلام القطاع الخاص على التجاوب مع النزعات الدونية لدى الجمهور. وقد ذكرت سينما القطاع الخاص عمداً لأشير إلى أن المقصود بالثقافة الشعبية هو أبعد ما يكون عن تملق الجوع الجنسي أو استعارة موجة الإجرام في السينما الأميركية. إن المقصود هو معالجة مشكلات الناس الحارة بروح من البساطة والاتجاه العلمي مع حرص على إشاعة جو التعاطف الإنساني والتوادّ والعمل المشترك. ويقدم لنا الأدب السوفياتي والأدب الأميركي الواقعي في الثلاثينات وأدب أميركا اللاتينية اليوم نماذج ممتازة لهذا النوع من الأدب المتصل بحياة الجمهور. على أن المطلوب ليس التقليد الحرفي للنموذج. بل الانطلاق من روح التجارب المختلفة والاستفادة منها في طريقة التجاوب مع المجتمع العربي المعاصر.

وتتصل بهذا الموضوع أشد الاتصال قضية **اللغة العربية**. وإن المرء يتحدث عن هذا الموضوع بخشية وفرق، لأن لغتنا العربية تعرضت منذ مطلع القرن، بل منذ زمن التتريك في العهد العثماني، إلى سلسلة من حملات التشكيك والمحاربة، وحتى اليوم هناك حملات مستمرة يقوم بها عملاء الثقافة المعادية والانعزاليون. وهذه الحملات المسمومة انتجت لدى معظم المثقفين انكماشاً وتشدداً بدعوى الحفاظ على اللغة العربية. ولكن من يحصي عدد الكتب المطبوعة بالعربية من المحيط إلى الخليج، ومن يستمع إلى الاذاعات ومحطات التلفزيون، ومن يتابع المجلات الخاصة والنشرات الرسمية. ومن يستمع إلى الدروس العلمية في بعض الجامعات العربية، يخرج باستنتاج واضح هو أن اللغة العربية اجتازت امتحان المحافظة على الذات ولم تعد مهددة مثلما كانت في مطلع عصر النهضة. وهي الآن تخوض مرحلة جديدة، مرحلة أن تكون لغة مجتمع بأسره لا لغة فئة نخبوية. وهذا يستدعي من المختصين أن يقوموا على خدمة هذه اللغة المقدسة الجميلة في ضوء معطيات اللغويات الحديثة والدراسات النفسية والاجتماعية لكي يصلوا بها إلى أن تصبح المعبرة عن روح الجمهور. إن مقاومة الهجمة على اللغة لا تكون بالتجمد ولا بالتصلب ولا بالرجعة إلى الوراء، وإنما تكون بوضع اللغة العربية أمام الامتحان الجماهيري، مما سيوفر لها أن تظل حية ومتجددة ومرنة ومتجاوبة مع روح العصر.

٤ - وبالطبع كل ما ذكر حول تصورات الثقافة العربية ينبثق من مفهوم النضال والالتزام. ذلك أن الحديث عن مقاومة الغزو الثقافي وعن شعبية الثقافة وعن قوميتها إنما يندرج تحت إطار أوسع هو إطار **الالتزام النضالي**. وبما أن الالتزام فهم في البلاد العربية بأشكال مختلفة وكانت له أحياناً نتائج سلبية على مستوى الإنتاج الثقافي لأنه استخدم مظلة للتغطية على ضعف الموهبة أو الديماغوجية أو الغوغائية فإن المرء يجد من الضروري التشديد على أن الالتزام المنشود هو التزام نضالي ثقافي، أي أنه نابع من متطلبات النضال ومنبثق من وجدان المثقف المناضل. وبذلك يكون مبرأ من الخطابية والشعارية والحماسة الوقتية

(٢٤) من أطرف ما اتفق لي بهذا الصدد أن أحد الطلبة الخامسين اعترض عليّ لأني طلبت ألا يقاطعني في الكلام وقلت له «الأصل في أدب المنافسة أن أستكمل كلامي ثم بعد ذلك لك عليّ أن تردّ بما شئت وسأمنحك الوقت الكافي». وأجابني الطالب بحدة. «إنك عارق إلى أذنيك في العمل العربي، فالعمل العربي هو الذي وضع هذه الأسس للنقاش»، وأذكر أني سألته. هل العمل الغربي يحرم المقاطعة في أثناء النقاش؟ كما أذكر أن أحد أساتذتنا الأجلاء كان يتحدث في مجلس جامعي في شهر تشرين الأول من عام ١٩٨١، وكان يقول ما فائدة هذه النقط والفواصل التي امتلأت بها الكتب المدرسية ولا أدري ما الفرق بين النقطة والفاصلة ولما ناقشته محاولاً أن أبين الفوائد الدينامية للتنقيط في الكتابة الحديثة استشهد بكتب الجاحظ التي يمكن أن تقرأ دون علامات تنقيط. ولما بينت له أن الذين يستطيعون قراءة كتب الجاحظ محدودون جداً في العدد وأن طبعات الجاحظ المنقطة أفضل بكثير أفاد أنه في حالة اضطرارنا لاستعمال التنقيط فلماذا لا نحيي أساليب التنقيط العربية القديمة وأهمها الدائرة .... وهذا الأستاذ الكريم بعد كل ذلك ليس من المتحجرين بل هو معروف بالمرونة وسعة الأفق.

و(التفكير الموجّ) الذي هو آفة واقعنا السياسي الحالي. وبذلك يختلف المثقف عن الاعلامي، عن المعلق الصحفي والاذاعي، على الرغم من وجود أرضية مشتركة بين المهتمين. إن دور المثقف هو أن يفهم ما هي مصلحة الأمة ومصلحة الجماهير وأن يتجاوب مع أهداف نضالها، ولكن بشرط أن تكون له رؤيته الخاصة وحيطته وحذره من دفع الناس إلى المزالق، إلى الحماسة المفرطة أو اليأس أو الخيبة. إن العمل لصالح الأهداف الوطنية - كما أوضحنا في مطلع البحث - هو من صميم المهمات النضالية للثقافة، ولكن العمل أيضاً لصالح عقلنة التحرك باتجاه هذه الأهداف يجب أن يكون في صميم مهمتنا. وذلك لكي يوفر المثقف على نفسه وعلى شعبه الخيبات العامة التي تنجم عن عدم الاهتداء إلى شكل النضال الأفضل أو إلى الارتماء في مزلق العاطفية أو المغالطة في مثل المناخ السياسي العربي الراهن الذي أصبح من مصلحة فئات كثيرة حاكمة فيه خلط الحابل بالنابل وإضاعة القضية الأساسية.

وهذا لا يعني أن نعرقل الأهداف أو نثبط حماسة الناس أو نضع العصي في العجلات وإنما يعني أن من واجبنا توجيه الأسئلة والاستفهامات ونقد ما نعتقد أنه منحرف عن جادة النضال العام. ويجب أن نقترح وأن نتفاعل مع الطليعة السياسية في مجال التصورات العامة ويجب أن يكون كل ما ندعو إليه نابعاً من قناعتنا. وما ذاك فحسب لأننا يجب ألا نسهم في عمليات خداع، وما ذاك فحسب لأننا يجب أن نحفظ خط الرجعة ولا ندفع الجماهير إلى ما نعتقد أنه سيقودها إلى الخيبة والفجيعة، ولكن كذلك لأن ثقافتنا نفسها تكون زائفة إذا لم تكن بنت القناعة الوجدانية، وليس من الحق ولا من المجدي أن نحرك الناس بثقافة زائفة. ثم إننا مطالبون بنوعية في المواقف وملموسية، مطالبون بصياغة النموذج، مطالبون بتقديم ثقافة معافاة وإبداع أصيل يكون ممتعاً ومفيداً وجذاباً ولا يكون عبئاً أو ضريبة على الناس كما هو الحال في مواضيع عديدة.

ومن أجل هذا يجب أن يكون التزامنا مرتبطاً بالمناداة المستمرة بحرية المثقف وبدوره الطليعي، وبديمقراطية الثقافة وبالحفاظ على خصوصيتها وجديتها وجماليتها واتقانها، ذلك أنه حتى تكون الثقافة مؤثرة يجب أن تكون ثقافة أولاً وأخيراً. وكذلك لكي تكون الثقافة مؤثرة يجب ألا تتعارض أية تصورات لها مع الشرط الأساسي الذي بغيره لا تكون ثقافة، وهو **الإبداع الحر المتوهج.**

* * *

وأخيراً يأمل المرء أن يكون البحث الحالي قد توصل إلى إقناع القارىء بخط مطرد خلاصته أن الغزو الثقافي يهدف إلى تحقيق لا عروبة الثقافة وأن التصدي لهذا الغزو يجب أن يهدف إلى خلق ثقافة عربية متصفة بالحيوية والمعاصرة. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الطريق ليس غير سالك ولكنه غير مفروش بالورد.

حسام الخطيب
اتحاد الكتاب العرب - دمشق

صدر حديثاً عن دار الآفاق الجديدة

تلفون ٣٤٩١٧٨/ ٣٤٩١٧٩
ص ب ٧٣٠٢ - بيروت

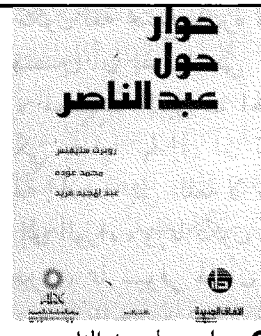

○ حوار حول عبد الناصر
روبرت ستيفنس
محمد عودة
١١٢ صفحة ١٠ ل . ل

○ الأخطل الصغير حياته وشعره
د . مفيد قميحة
٤٠٠ صفحة ٢٥ ل . ل

○ مقامات بديع الزمان الهمذاني
تقديم وتنسيق فاروق سعد
٣٥٢ صفحة ٧٥ ل . ل
طبع ملون - صور ملونة مجلد

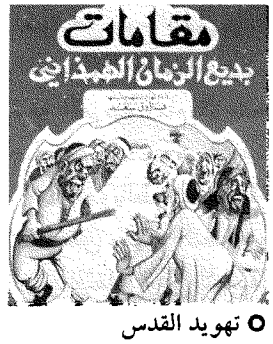

○ تهويد القدس
كيت ماجوابر
٧٢ صفحة ١٠ ل . ل

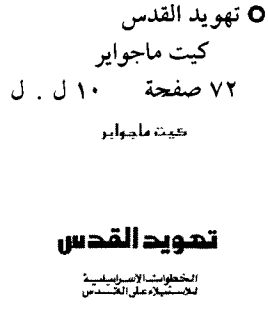

○ فصول في علم الجمال
عبد الرؤوف برجاوي
٣٣٦ صفحة
١٦ صفحة ملونة ٣٠ ل . ل

○ فن المراسلة عند مي زيادة
امل داعوق سعد
٢٩٦ صفحة ٢٠ ل . ل

○ تطور فن القصة اللبنانية العربية بعد الحرب العالمية الثانية
د . علي نجيب عطوي
٢٨٨ صفحة ٢٠ ل . ل

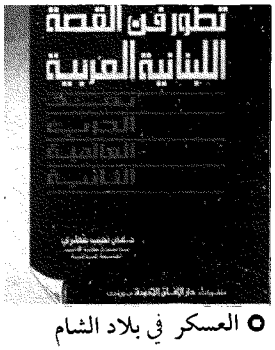

○ العسكر في بلاد الشام
نوفان رجا الحمود
٣٣٢ صفحة ٢٠ ل . ل